Diwan al Arab
منبر حر
للثقافة والفكر والأدب
www.diwanalarab.com

مكتبة ديوان العرب تقدم لكم

عندما تتكلم الأبواب

- قصص قصيرة -

للأديبة السورية

جمانة أمين طه

من منشورات اتحاد الكتّاب العرب
1998

تصميم الغلاف الورقي للفنان : سرور علواني

سنديانه تستعيد جذورها

كل شيء بدا لي مختلفا في هذا الصباح الخريفي. الشمس أشرقت فيه غير مكترثة بحزني، وكنتي المكسيكية على غير عادتها، دعتني لمرافقتها إلى حديقة عامة للتنزه وتخليص أجسادنا من سآمة البرودة.

شروق الشمس ودعوة كنتي، كانتا أول خطوة في سفر خروجي إلى عالم لم أر منه غير البوابة التي أوصلتني إليه. فأنا منذ ستين يوماً حبيسة المنزل، أحيا وحيدة مع تلفاز أعجمي لا أفقه من مسامراته شيئاً.

بفرح طفولي تهيأت للنزهة، لبست وتزينت. ومثلي فعلت لورين، لنفسها ولابنها. ثم انطلقت بنا بسيارتها، في شوارع أدهشني اتساعها وضخامة العمارات التي تنهض فيها.

في الحديقة، استقبلنا عالم بهر عيوني بنقائه، بنافورات مياهه، بمساحاته العشبية والمزهرة، حتى قلت في نفسي: إنها الجنة. عند أحد الأركان، افترشنا العشب، وأخذنا نستمتع بالدفء والألوان، وبرؤية الناس العابرين بنا، وغير المبالين بما نفعل.

بمحاذاتنا، تسير عربة طفل تدفعها سيدة متقدمة في العمر، رامقتنا وهي تتجاوزنا بنظرات تحمل نوعاً من التفحص. ساورتني نفسي بأنّ الطفل الذي في العربة حفيدها. لحظات وتعود السيدة بالعربة بضع خطوات إلى الوراء، تتوقف قبالتي، تحييني بلغة عربية وتسألني: من أين أنت؟.

سؤالها المفاجئ أوقف كل حركة حولي. أوقف غربتي على شفتيها وعلى الحروف التي نطقت بها. كان يمكن أن أهتف فرحاً، أن أزغرد، لو لم يسبقني قلبي إلى يديّ، فعانقتها. من أين أنا؟ ستون يوماً مضت، لم أصادف فيها أحداً يبادلني الكلام، أو يسألني ما اسمي؟ ستون يوماً، وسواكن البيت تضيق بي حتى مللت وجهي ووجوه ابني وحفيدي وكنتي. ستون يوماً، وأنا أعيش تقلبات نفسية متناقضة أوصلتني إلى حدود الاكتئاب وأحياناً إلى الهلوسة.

قالت السيدة: شعور خفي أوحى لي بأنك سورية، وقلمونية أيضاً. فهل أنت كذلك؟ كم أنت ذكية. نعم أنا من يبرود.

- الدم يحن، فأنا من النبك.

* * *

لحظات لقائي مع مريم النبكية كانت قصيرة. لكنها كافية لنفيض فيها بما يتعبنا. قالت مريم: أمريكا يا أم عاطف تغري أبناءنا بالمال وبالرفاهية، تعطيهم الاستقرار، وتسلخهم من بيئتهم وأهاليهم. واكثر ما يؤرقني ويحزنني أن أحفادي يكبرون بعيداً عن عيني، بعيداً عن تراب الأرض وتراثها. سيصبحون اميركان يا أم عاطف، فابنتي

لا غرابة أن تأرقي يا مريم، وأن تحزني. فالحياة بلا جذور لا معنى لها، ولو كانت في جنات الخلد. انظري إليّ. أليس مضحكاً ومبكياً معاً، أن يعيش جسدي في عز لم أحلم به. وأن تعيش روحي في جفاف لا أحتمله؟!. الأشياء في بيت ابني متشابهة، والأيام فيه متماثلة. في المساء أنام وفي الصباح أفيق. وضمن ما يمتد بينهما من زمن أقوم بواجباتي الشخصية بصمت وآلية.

ابني يخشى عليّ من التجول وحدي في مدينة أجهل لغتها واتجاهات شوارعها. قد يكون محقاً في هذا. لكن، هل من العدل أن تتموت أيامي بين جهلي وغربتي؟!. عاطف مشغول عني بعمل يستغرق ساعات يومه، وزوجته أيضاً مشغولة بابنها وعملها. الغربة صامتة يا مريم، وصمتها يشي بصاحبها، يفضح سره ويزيد في وحشته وانعزاله.

عاطف ابني الوحيد يا أختي مريم، وكان من المفروض أن يعود إلى سوريا بعد أن ينهي تخصصه، لكنه آثر الزواج والحصول على بطاقة إقامة، على العودة. لقد ماطلت كثيراً قبل أن احضر إلى شيكاغو، حتى لا أكون عبئاً على زواجه. وعندما تغلب قلبي على عقلي، طرت إليه السموات السبع، وها أنا أمامك كما ترين.

حديثي مع مريم فَجَّر حنيني إلى بلدتي. فكرت بالعودة معها على نفس الطائرة التي ستحملها إلى الوطن بعد أيام. جُن جنون عاطف. اتهمني بالقسوة وبأني لا أفكر بما يعانيه من قلق في غيابي. وقال إنه لن يتركني أعود إلى الوحدة والصمت.

- الصمت والوحدة هما هنا يا بني!.

- الوحدة في بيت دافئ مريح، غيرها في بيت مهترىء حيطانه دَبْش.

- الوحدة باردة أينما كانت يا بني، ولو خرجت لتوها من بيت النار. والبيت المهترىء هو سترنا وكرامتنا، أم نسيت أنه سوّاك رجلاً؟!.

- لا أقصد المعنى الذي فهمته من كلامي يا أمي، وإنما أحاول أن أقنعك بالبقاء.

ما أعجب مشاعر الإنسان كم هي متغيرة! عندما كنت في يبرود، كاد الشوق إلى عاطف يقتلني. واليوم، وأنا معه يكاد الشوق إلى يبرود يخنقني. حتى أن البعد عن يبرود قد ضاعف جمالها في عيني مئات المرات. تأتيني الذكريات، تقلب خفايا الذاكرة وتوقظ في داخلي صوت ناقوس الكنيسة، واللكنة اليبرودية المحببة. توقظ حنيني إلى الوجوه الجبلية الطيبة، إلى الثلج يغطي السفوح والجبال والأشجار، إلى الضباب يخفي وراءه برج الكنيسة والمنازل القديمة المتلاصقة. إلى الربيع الأخضر يكسو الحقول، إلى مصطبة البيت وحديقته الصغيرة. إلى مساكب البقدونس والنعناع والنرجس فيها. ما كان أسعدني عندما كنت أنكش تربتها، أسقيها وأنزع منها الحشائش الضارة.

يلحظ عاطف تفاعلاتي المتدفقة. يحيطني بذراعيه، يقبل رأسي ويقول: صبراً أم عاطف. مع الأيام ستعتادين على الحياة هنا. فبعد مدة سيمنحك صندوق الضمان

راتب شهري لي، وبالدولار؟ ضحكت حتى دمعت عيناي. كل شيء جاءني متأخراً عشرات السنين. في زمن مضى كنت أبحث عن ليرة في جيبي أو في جيوب أمي أو أحد أخوتي ولا أجدها. وفجأة وبدون عناء تأتيني مئات الدولارات؟!. ملاطفة الحياة لي الآن لا تليق بي، فأنا لم أتعود منها على غير الجفاء. أنا لست ساخطة على ما نلته من نصيب في الماضي، إنما ساخطة على الظروف التي وافتني في غير أوانها. ساخطة على الفقر الذي خرجت بسببه من المدرسة وكنت فيها متفوقة، لأتزوج من رجل سافر، غاب وكأنه فص ملح وذاب، تاركاً إياي للهجر والعذاب.

تفتح التداعيات ثقوباً في ذاكرتي، تطل منها صور وأحداث بعيدة، كنت أحسبها اندثرت. أتذكر يوم عدت من المدرسة، ولم أكن قد أكملت الثالثة عشرة من عمري، لأجد أمي قد خطّبتني. هكذا دون أن تسألني رأيي. في تلك اللحظة، شيء ما انكسر في داخلي. كنت بلا أب، فقيرة معدمة. وكانت أمي ترغب بتزويجي وأنا بكرها، لتتخفف من عبء مسؤوليتي، لا سيما وأنَّ عندها خمسة أبناء غيري.

كان زوجي شاباً لاهياً لعوباً، أحببته وتعلقت به، على طيشه وعدم اكتفائه بي. لكنّ جائحة الجراد التي قضت على الأرض في القلمون، ساقت زوجي للعمل في بيروت، ومنها إلى البرازيل. غير سامع لتوسلات والديه، وغير عابئ بمصير الجنين الذي كان ينمو في داخلي. وبعد فترة ليست طويلة، انقطعت أخباره وغاب أثره. ولا أدري بأي زقاق ضاع، وبين يدي أية فاتنة أتلف جذوره.

ساعدني جدّ عاطف في تنشئته ورعايته، وفي سدّ الثغرة التي خلفها غياب والده. لكنَّ مستقبل عاطف ظلّ هماً أحمله في عقلي وبين جوانحي.

ولسوء حظي توفي الجدّ، وبقيت مع ابني بلا سند أو معيل. ليبتدأ صراعي مع المجتمع الريفي الضيق والمتهم، الذي تذكر فجأة أني بلا زوج. ومع أخوة زوجي الذين حرموا عاطف من إرث أبيه.

تقولات المجتمع، وموقف أعمام عاطف أوجعتني. وفي ذات الوقت كشفت عن بصيرتي، علمتني أن أتعامل مع الأشياء بعقلانية وواقعية. اشتغلت منظفة في عيادة طبيب القرية، ومنه تعلمت ضرب الإبر للمرضى. إلى أن ساعدني الحظ، وعملت مساعدة ممرضة بالمشفى الدانمركي في النبك. وهذا العمل، أحدث نقلة نوعية في حياتي وتفكيري، صقل شخصيتي وأطلعني على جوانب من الحياة كنت أجهلها.

لا أدري لماذا تحاصرني الذكريات؟ ألأنَّ التفكير بمستقبلي في شيكاغو يرعبني؟ ربما! ألأنَّ وجودي مع كنتي يؤلمني؟ ربما!. الله يعلم أني لا اشتكي من لورين لأنها كنّة، وإنما أشتكي من غربتي ووحشتي.

عندما أتيت إلى هنا، حاولت أن أجعل من وجودي نعمة على ابني وزوجته. كأن أرعى الصغير في غيابهما، وأعدّ لهم الطعام. لكن كنتي حجمتني، سطت على قراري في تفاصيل يومي. أوقفت كل محاولاتي للمساعدة، ومنعتني

أنا لست امرأة متأففة أو جاحدة للنعمة. لكن كل يوم ينقضي على وجودي هنا، يزيدني ثقة بأن أيامي المقبلة لن تتميز بأي فضل عن التي سبقتها.

فلماذا أستمر وأتحمل عبء الغربة والصمت والوحدة؟ اعذرني يا بني، لن أقايض على حريتي وذكرياتي بحفنة من الدولارات. ورغبتي بالعودة إلى الوطن تبدو نهائية.

سأعود إلى بيتي المهترىء وحيطانه الدَبْش. سأعود إلى حديقتي الصغيرة، لعلّ جذوري تستعيد مكانها في تربتها الندية. فالوطن يا بني ليس ترفاً ورفاهية. وإنما هو حب وأمان وجذور.

■■■

ردينة

كانت الساعة تشير إلى الرابعة صباحا، عندما عاد عبد الجبار إلى الفندق الفخم الذي يحلّ فيه. أخذ حماماً ساخناً، ارتدى منامته الحريرية، وأراح جسده المندّى على الفراش الوثير. ثم أرخى لخياله عنان السفر على جسد ردينة وتفاصيله الأنثوية اليانعة، مع أنه ليس من الذين ينسرحون وراء الفنتازيا والأحلام.

إنه عاجز تماماً عن تعليل تعلقه بردينة، وحوله ورهن إشارته أحلى الشقراوات والسمراوات. فأمواله، تضع في خنصره خاتم سليمان، وفي يده مصباح علاء الدين. وما عليه إلا أن يحرك الخاتم أو يدعك المصباح، حتى تصبح الأحلام واقعاً والرغبات مقضية. عندما رأى عبد الجبار ردينة بطّولها الفارع النحيل، وأنفها الاقنى، ظنّها أو روبية. فقالوا بل عربية. حيته بحيادية حيّرته، أشعلت الأفكار في رأسه، وأبعدته عن التركيز في اللعب. لماذا؟ لأنها أول فتاة يصادفها في هذا المكان، لا تبدي اهتماما به، ولا تأبه لمظاهر الفخفخة التي يحيط بها نفسه. صورة ردينة تحاصر مخيلته، تحتلها. يحدث نفسه، يسألها: أتراها نزوة رغبة، لأنَّ كل ممنوع مرغوب؟ أم أنه الحب؟ حب؟ وأنا لم أتعامل قبلا مع أية امرأة من منظور الحب؟. صحيح، إنما هذه المرة مختلفة. ألم يكد قلبك يطير من بين ضلوعك وأنت تراها تخطر في رواق الكازينو، بقدها الرمحي وجمالها العنبري؟ يتوقف عند لفظة كازينو. يتمنى أن يعرف ما الذي أتى بفتاة مثلها إلى هذا المكان؟ أهي مقامرة، أم أنها بنت..؟ لم يكمل الكلمة، التي شعر أنها لا تناسبها.

ثقل قلبه في صدره. زفراته المحمومة ترفع وتيرة عمل المكيف. يلوب في الغرفة متهيجاً ملتهباً، وكأنه مراهق صغير لا يملك سبيلاً لضبط مشاعره. للمرة الثالثة يغسل وجهه، يفرغ كأسين من الماء المثلج في جوفه المحترق. يمشي صوب باب الشرفة ليملأ صدره بنسمة منعشة، لكنّ فجر القاهرة كان يشق درب النهار بهواء ساخن رطب. يغلق إلى السرير. يطول أرقه. يضغط زر التلفاز على محطة تبث برامجها على مدار الساعة. تقتحم عينيه مشاهد تصور بعض الشباب الفلسطيني وهم يسقطون برصاص الإسرائيليين وهراواتهم. وكيف يسقط أطفال افريقيا وشيوخها تحت معول الجوع والفقر والمرض. يلوي شفتيه تبرما، يشتم محطة البث وأخبارها، ويغلق التلفاز. يحس شيئا ما، يتململ تحت جلده السميك، يهيب به أن يفيق من أنانيته وسلبيته، ويفكر بما شاهده منذ لحظات. يقتلع جسده عن الأريكة وهو يقول: والله عال، كمل النقل بالزعرور.! ما علاقتي أنا بما يجري في العالم، وبمن يموت أو يعيش؟. يسحب الستارة عن النافذة. شمس يوم جديد يفسح الضيق عن صدر الغرفة، وعن صدره.

يغتسل، يرتدي ثيابه ويخرج من الفندق إلى مقصف مطلٍّ على النيل حيث الهدوء والجمال، وحيث القوارب الصغيرة المستحمة بالنور والماء. يصف النادل طعام الفطور أمام عبد الجبار، ويملأ له فنجانا من الشاي الساخن. يرشف رشفات من مائه المنعش، تريح أعصابه وتسري الدفء في شرايينه، فتنبسط ملامحه لأحلام راودت قلبه المعنّى. ومن غير استئذان تعصف بأنفه رائحة عطر يعرفها. يتلفت حوله، فيرى ردينة وهي تدلف صالة المقصف، متأبطة محفظة وكتبا وأوراقا. من يصدق أنّ هذا يحدث له؟ من يصدق أنّ الفتاة التي أرّقت ليله هي الآن أمامه هكذا بكل بساطة.؟! تقع عينها في عينه وهي تتقدم بخطاها نحو مجلسه. يشد جسده إلى الوراء ليسيطر على دهشته، وقد صار للفرح أقدام تركض في أعماقه، تتسلق شرايينه، تضخ الدم إلى وجهه والعرق إلى يديه. تحييه ردينة، وتعتذر لتطفلها على خلوته. وبإشارة من يده، يدعوها للجلوس، بعد أن ضاعت من حلقه كلمات التحية والترحيب. كانت ردينة تتصفح قسمات وجه عبد الجبار بملامحه المدهوشة، وتردد كلمات الاعتذار كالببغاء. وبحركة من عينيه، يتساءل عبد الجبار عن السبب الذي أتى بها. فتقول ردينة: أنا صحفية، وقبل أن تكمل جملتها، يسألها بشك: قلت صحفية، ما علاقتي أنا بالصحافة؟. وطالبة، أحضّر بحثا عن نفسية المقامر وسلوكه. إهتز عبد الجبار، صدمته كلماتها وشعر بالامتعاض لجرأتها ومباشرتها في طرح أفكارها. عندما رآها ظنّ أنها قدمت لمؤانسته ومجالسته فخاب أمله. لكنه في ذات الوقت شعر بالارتياح، لأنّ ردينة ليست واحدة من إياهنّ.

- جئت طامعة في مساعدتك. همست بحياء.

- ما هذا البحث الشائك، الخطر الذي اخترتيه؟

- الخطر محسوب في أي بحث نقوم به. سنتان وأنا أستجدي البيانات والمعلومات من الذين لهم صلة بهذا الموضوع. والنتيجة ما زالت دون مستوى الطموح.

- ما السبب في رأيك ؟ سأل عبد الجبار.

-لأنّ الناس في مجتمعنا يفتقرون إلى جرأة البوح عن أسرارهم، والتصريح عن مشكلاتهم.

أحس عبد الجبار، أنه قد وضع في ورطة. إن هو صدّ ردينة سيخسر مودتها، وإن استجاب لطلبها، سيتحول إلى موضوع في استمارة في بحث. وبذكائها استشفت ردينة ما يدور في داخله، فسارعت لقطع الطريق أمام رفضه وسألته: في رأيك، ما الذي يدفع الإنسان إلى المقامرة؟ وبدون تفكير أجاب: الفراغ، وحب اللهو.

_ هذا في بداية الأمر. لكن، ألا تتغير مع الزمن دوافع المقامر؟.

_ دوافعي أنا لم تتغير، أما عن غيري فلا أعرف. أنصحك أن تراقبي اللاعبين وتتابعيهم، مثلما فعلت ليلة أمس.

-ليتني أقدر. أعصابي لا تسعفني لأمكث طويلا في صالات القمار. أتألم لرؤية التعب على وجوه اللاعبين، والقلق في عيونهم، والاضطراب على أيديهم المعروقة

- يُخيَّل إلي أنّ المقامر يحاصر نفسه بنفسه، وكأنه يقف خصما ضدها. يضحك عبد الجبار ويقول: تتحدثين وكأنك عالمة من علماء النفس.

- ليت لي هذا الشرف! ألست معي في ذلك ؟ ألست معي أيضا في أنّ القمار يعلّم حب الأنا، والحقد على الآخرين؟

- وأنت ألست معي في أنّ سريرة الإنسان تنطوي على الفضائل والرذائل؟. قال عبد الجبار هذه الكلمات، وعيناه مفرودتان على صفحة النيل، فيما كانت عيناها تتأمل وجهه المشرع أمامها بوسامة غير خافية. يتداعى إلى نفسها سؤال صامت: ترى، كيف يمكن للجمال والبشاعة أن يجتمعا؟ وبصمت ترد على تساؤلها: لم لا؟ أليس بين الشوكة والوردة عناق حميم؟. ارتفعت الشمس حتى تكبّدت السماء. عملها في الصحيفة ينتظرها، وصفقاته المالية تنتظره. في حين كان النيل يمضي بانتظار لقاءات قريبة أخرى.

■■■

الـرهـان

عندما أخبرني فاضل برغبته بأن نرافقه إلى منتجع في ريف طرطوس، حيث سيشرف على تنفيذ حلقة دراسية تعقد هناك عن الصحة الإنجابية، شعرت بسعادة. وجدتها فرصةً يخرج فيها الأولاد من تعب الامتحانات، وأخرج أنا من دائرة القلق التي تطبق على مشاعري وتفكيري.

منذ شهور، وفاضل يتجاهل أنوثتي. يتركني وحيدة في السرير، نهباً لتساؤلات تتقاذفني مثل كرة. ماذا جرى؟ ما الذي غيّره من إنسان محب سمح القلب، إلى آخر متأفف بارد العاطفة؟.

كنت أسأله عمّا به، فيجيبني بآلية تغيظني: مشاكل عمل، لا تقلقي.

لا أقلق؟! كيف لا أقلق وأخبارُ علاقته بإحدى طبيبات قسمه تتسرب إلى سمعي يوماً بيوم!

لو يعرف الزوج حجم معاناة زوجته عندما يغيب بلا عذر عن البيت، لما غاب! فكيف إذا اقترن غيابه بشائعات تكسر القلب؟!.

لا أنكر أني أثق بفاضل. ولا أظن أنه يتخلى عني إلى امرأة أخرى، رغم اختلافنا وخلافاتنا. لكنّ الثقة أحياناً لا تكفي. فالشائعات تحاصرني، وعلى غير رغبة مني، تقاسمني حياتي. تشوّش نظرتي لزوجي، وتجعلني غير قادرة على التمييز بين الواقع والوهم. أكثر من مرة قررت أن أبلّغ فاضل بما أسمع، وأن أحدثه عن خوفي من فقده. وما أن اقترب من هدفي حتى يغلبني خجلي من اتهامه بما ليس مؤكداً، فأبتعد.

في أحاديثي مع صديقاتي، عن مشاكل الأزواج والزوجات، كنت أتباهى بإخلاص فاضل ومحبته لي وأراهن عليها. فكانت سعاد تلومني على ثقتي المفرطة، وتحذرني من غدر الرجال. وكانت زينب تذكّرني بتجربتها المرة مع زوجها وطلاقها منه. وحدها سهير كانت تمسك العصا من منتصفها، وتنهاهما عن تسميم أفكاري نحو زوجي. فيعلو الاحتجاج ويحتدم النقاش، ويبدأ الرهان من جديد.

* * *

الأولاد نيام وفاضل في المشفى، وأنا في الشرفة وحدي. أهرب من شجني إلى مواقف معلقة في الذاكرة، تتزاحم في الحضور. يتقدمها مشهد لقائي الأول بفاضل. كنا في قاعة المحاضرات، التعب قد أخذ حقه من الطلاب، ودرس التشريح لم يكن قد انتهى بعد. التقى وجهانا، ضحكنا. عندما ضبط كلٌ منا الآخر متلبساً بجرم الملل، وجرم التثاؤب الذي أدمع أعيننا. نظرةٌ خاطفة خطفت قلبينا، فتحت

تتوالى المشاهد على ذاكرتي: زواجنا، إنجابنا، سفرنا إلى ألمانيا للدراسة، تخصص فاضل في أمراض النساء، وتخصصي في علم الأشعة. تأخذني نشوة الماضي، أشعر وكأني في خميلة كلما قطفت وردة تزهر أخرى.

استبطأت رجعة فاضل! انقبض قلبي. أتراه معها؟ كيف تبدو، شقراء أم سمراء؟ طويلة أم قصيرة؟ أفكر ماذا لو اقتلعتني هذه التي لا أعرفها من حياة فاضل؟ أسخر من وساوسي. أحاول إقصاءها عن تفكيري، تلاحقني. وجودها منغرز تحت مساماتي، فلا مهرب!

هنيهاتٌ دافئة تغمرني. تنقلني إلى حديقة مترفة الخضرة بابلية. الزملاء والمتدربون يتحلقون حول الطاولات يسمرون. فاضل إلى جانبي يبدو برماً متململاً، والكرسي يتأوّد تحت اهتزاز ساقيه. لاحظ زملاؤه اغترابه، حاولوا اجتذابه بالنكات حيناً، وبالمسائل العلمية حيناً، فكان نصف مرحب ونصف شارد.

على الطرف المقابل لنا تجلس طبيبتان. تلاصق رأساهما بحديث استشعرت أنه يخصّني. كانت نظراتهما تضربان دواخلي تشتتاني، تنصبّان بالتناوب على فاضل وعلي. جهدت في استقراء الشفاه، قاطعتُ الكلمات بالنظرات، فتبينت أن الإشاعة ليست إشاعة، وأن علاقة فاضل بالطبيبة علاقةٌ مؤكدة. شعرت بسذاجتي وقصر رؤيتي، وأيقنت أني قد خسرت الرهان لصالح سعاد وزينب. يا للزمن الوحشي الذي يسوقنا إلى نهاية لا نتوقعها، ويقسرنا أن نرى أحبابنا على عكس ما نعتقد ونتمنى!!.

* * *

غادرت الحديقة من غير أن يلحظ أحد ذلك. خرجت إلى الطريق الممتدة بين المنتجع والقرية. مشيت في حزن الليل. درت، جريت، زعقت حتى اختلط صوتي بالشجر وبالبيوت الصغيرة. من قبل، لم أكن أعرف كيف تشعر المرأة لدى تيقنها من خيانة زوجها لها، والآن أجزم، أني أعرف.

كنت غاضبة حانقة. لو أقدر أن أحطم الصخر برأسي وبرأسه لما امتنعت. خمسة عشر عاماً ضاعت، تلاشت في طوفان الغش والكذب. غدا يسير ابننا نحو عامه الرابع عشر، وزواجنا يسير نحو نهايته، أية مفارقة مؤلمة؟!.

ضباب كثيف يحجب النجوم، والخريف يرش رذاذه على ثيابي ووجهي. أقرر العودة لأواجه فاضل بفعلته. شيء ما يمسكني، يمنعني. ألهث، ألهث، يتقطع نفسي، وصدري يضيق. أفيق مذعورة. كان فاضل يوقظني برقة، ويقول: نائلة ما بك تختلجين؟ أتشعرين بالبرد أم كنت تحلمين؟. تعالي ندخل الغرفة، ونوقظ الأولاد، لنغادر معاً إلى المنتجع قبل أن تشرق الشمس.

وقفتُ ساكنة تماماً، مشدوهة. أنظر إلى زوجي، بين مصدقة ومكذبة. وليس على فمي كلمات أستطيع أن أعبر بها عن فرحتي، بأن ما مررت به كان مجرد حلم ...!

■■■

دار السعادة

حين كان المطر يتساقط ناعماً والشمس تقتحم السماء بلا خجل أو تردد، كانت رنا تقطع على قدميها المسافة بين بيتها والمكان الذي تقصده. في ذهنها حزمة من الأفكار القلقة، وفي مخيلتها صور ملونة للقاء يختلف عن كل اللقاءات.

في ذات الأثناء كانت السيدة ثريا ترقد في الفراش تتألم. ومع أنّ الطبيب بثّ الأمل في نفسها، وزعم أنّ مرضها مجرد وعكة بسيطة، إلاّ أنه غير مطمئن تماما لحالتها.

الباب يقرع، طرقاته ترعش السيدة ثريا النائمة بفعل حبوب مهدئة. تفيق، عليها أن تنهض لا أحد في البيت سواها. زوجها في العمل والخادمة في إجازة. تفترّ درفتا الباب عن وجه رنا، وعن جسد ناحل في الداخل، وصوت واهن يقول: أخيرا جئت! ادخلي، وأغلقي الباب خلفك يزغلل قلب رنا بشراً. عدم الحذر في دعوتها للدخول، حررها من كثير من التشنج، وأزاح عن صدرها عبء الخطوة الأولى.

تصل السيدة ثريا إلى سريرها بتثاقل واضح، وهي تلهث. مددت جسدها على الفراش، وسحبت عليه الملاءة السميكة، وقد اتخذ وجهها لون الأموات. ترتبك رنا، تعتذر بحياء صادق عن حضور جاء في غير وقته، وتستأذن بالانصراف. تستبقيها السيدة ثريا قائلة: بل جئت في وقتك. موقف السيدة أوحى لرنا، بأنّ (حسان) قد مهّد لها عند أمه. فتساءلت بتخابث: في وقتي؟!

- تماماً. ألست من طرف السيدة فريال؟

- من السيدة فريال؟ هناك على ما يبدو سوء تفاهم.

- لا يهم. استبدلي ثيابك وابدأ العمل.

تنفر رنا من مقعدها مثل مهر أرون، وهي تقول: دعيني أشرح لك الموقف.

ومثل غريق يتعلق بقشة، ترفض السيدة ثريا أن تسمع أي شرح أو تفسير، وتلح على رنا بأن تستبدل ثيابها بالمريول المعلق على مشبك خلف باب المطبخ.

يمتلئ الهواء في صدر رنا بالضيق والتذمر والصمت. وهي متسمرة، لا

-ما بك تقفين هكذا كالخشبة؟ هيا تحركي هيا. الكلمات تخرج من بين شفتي ثريا متقطعة متآكلة.

في هذه اللحظة، تتبدل مشاعر التعاطف في نفس رنا إلى مشاعر كره تجاه هذه السيدة المتسرعة المتعالية، على ضعفها وقلة حيلتها. تأسف رنا على أحلام، لم تكن غير أوهام. على صور، لم تكن سوى سراب. تفكر بالهروب، تتحرك قدماها باتجاه الباب. يتمثل لها حسان بقامته المديدة ووجهه الصبيح فيجتاحها حنين. ترن في سمعها دفء كلماته عن أمه ووحدتها، وعن حاجتها لابنة تكون معها تعينها وتسليها بعد أن تغرّب عنها كل أولادها.

تلوم رنا مشاعرها العدوانية، وتقرر أن تعلن عن هويتها وسبب مجيئها، قبل أن يزداد الموقف تأزّماً.

-سيدة ثريا، أرجوك أن تسمعيني. فأنا لست عاملة التنظيف التي تنتظرينها. أنا رنا، صديقة حسان.

سماع اسم ابنها حسان يريح أعصابها، يفك عقدة حاجبيها، فتبتسم.

(أخيراً يجد حسان وقتاً للحب. كنت خائفة على مشاعره، من عمله الجاف المتواصل. سعيدة أنا لأجله. لكن، كيف يرتبط ولا يعلمني؟ وأنا التي عشت في ثقة طوال هذه السنين، بأن أبنائي لا يخفون عني شيئاً!. لا تتعجلي بالحكم يا ثريا. ما أدراك أن هذه الفتاة صادقة فيما تقول؟).

كانت رنا تراقب تفاعلات السيدة ثريا الصامتة. تعاودها المشاعر العدوانية. تتمنى لو يرى حسان والدته ليعرف أن أمه ليست كما وصفها رقيقة كالورد شفافة كأشعة القمر.

- سيدة ثريا. قد تراودك عني أفكار غير مريحة. إذ ليس من المألوف في بلدِنا أن تطرق الفتاة باب من تحب. إحساسي بصدق عواطف حسان جعلني أنفذ، وبدون تفكير، رغبته بأن أزورك، أتعرف بك وأطمئن عليك. كنت وحسان زملاء في الجامعة، وبعد التخرج ذهب كل منا في طريق. المصادفة جمعتنا ثانية في بيت أختي في قطر، حيث يعمل زوجها، وحسان في شركة واحدة.

كانت السيدة ثريا تنصِت لكلمات رنا، وهي تفرك يديها بشدة تحت الملاءة، لتخفي ردودها المستنكِرة.

ترتفع سآمة الجو وسخونته. تتصيد رنا النسمات الطائشة عند الممر المفتوح على صالونات البيت وغرفه الواسعة الأنيقة. وبدون مناسبة، تتذكر أن لحسان جدة تعيش هنا في البيت، فتسأل: أين الجدة، كيف حالها؟

(يا لها من فتاة جريئة! تسأل أيضاً عن الجدة!!).

- آآ. الجدة! كبرت وخرفت ولم تعد تصلح لشيء.

- قال حسان إنها تعيش معكم. وهي صاحبة فضل في تربيته، هو وأخوته.

- كان هذا من زمن طويل، عندما كانت قوية. أمّا اليوم، فهي مثل قفة الهمّ. منذ شهرين أدخلتها دار السعادة.

- أدخلتها أين ؟

- دار السعادة. ألم تسمعي بدار السعادة ؟. إنها دار للمسنين تشبه فندق خمس نجوم. أجرة الغرفة عشرة آلاف ليرة للشهر الواحد. كان لعاب السيدة ثريا يطقطق في حلقها، يسد مخارج حروفها، فتشرق وتشهق كديك مذبوح. ورنا تنظر إليها ساكنة لا تريم، لا تجد في نفسها دعوة لمساعدتها والتخفيف عنها. وبدون كلمات وداع، تستدير باتجاه الباب الخارجي. وقبل أن تدير مقبضه وتخرج، تعود إلى غرفة السيدة ثريا، وتسألها:

بالمناسبة، أين تقع دار السعادة؟.

تتحجر مقلتا السيدة ثريا، يتهدل جسدها مثل عنقود انفرطت حباته، وتغرق في صمت ثقيل. في حين كانت خطوات رنا تلّم قطرات المطر عن إسفلت الطريق.

■■■

لقاء أوروبي

لم تتبق غير ساعتين على وصول القطار القادم من لندن إلى أدنبرة. وأنا لم أحسم موقفي، في أن أذهب إلى المحطة أو أنتظر في البيت.

كان زوجي عائداً من رحلة عمل له في لندن. وفكرة استقباله في المحطة تراودني، بل تسيطر علي، بدرجة حجبت عن عيوني رؤية ما يمكن أن يحدث، فيما لو وقع لي تصادم أو أوقفتني دورية مرور. فأنا حديثة العهد بسياقة السيارة ولم أكن قد حصلت بعد على ترخيص يخولني ذلك. وبين أخذ وردٍ بيني وبين نفسي وبين خوفي ورغبتي، حزمت أمري. ركبت السيارة، أدرت محركها، وانطلقت باتجاه المحطة متكلة على الله والحظ.

كان الطقس جافاً والطريق باردة، وخالية من المارة. على طول المسافة التي تفصلني عن وجهتي، ترافقت مع الأشجار الضخمة المتناسقة، ومع الأضواء التي كانت توزع بقع النور على كل ما حولها، بكسل وضبابية.

وقبل موعد القطار بنصف ساعة وصلت المحطة بسلام، والسعادة ترفعني في مظلات فرح، حتى خلت نفسي أطير. - ليلة باردة. قال الرجل الذي يجاورني في المقعد، وكأنه بكلماته يفتح كوة في جدار الصمت.

- هي كذلك. أجبته وأنا أحكم ياقة المعطف على رقبتي، رغبة في الانكفاء ومعاودة الصمت.

لم يحفل الرجل برغبتي. لقد اشتمَّ غربتي من لهجتي. فانهال عليّ بأسئلة متلاحقة، عن سبب وجودي في المحطة وعن عمل زوجي وعن عدد أولادي وعن...

ومع كل جواب، كانت ابتسامته تعرض استحساناً وإعجاباً. لكنه ما أن عرف أنني عربية من سوريا، ولست اسبانية كما خمّن، حتى تقلصت ابتسامته وتجهم وجهه. ثم استقام في جلسته، قائلا باستخفاف: عربية، هيه عربية! يكفي أن تقولي إنك سوريّة. أجبته بابتسامة: لا. لا يكفي.

فقال بلهجة الواعظ: لا تكوني عاطفية، حتى لا تعقدي علاقتك بالمجتمع الذي تعيشين فيه.

أغضبتني لهجته، وألهبني موقفه من العرب. لكنّ عجزي عن التعبير أغضبني أكثر. فلغتي الإنكليزية لا تسعفني في الرد عليه رداً يرضي مشاعري وطموحي. ومع بعض الجمل الركيكة والكثير من حركات اليدين، استطعت أن أتحاور معه حتى النهاية. قلت له:

- هل أنت بريطاني وكفى، أم أنت اسكوتلندي أولاً؟

- طبعا، اسكوتلندي أولاً.

- إذن، القومية مهمة؟

- هي كذلك دون شك. إنما، يختلف الوضع عندك بعض الشيء.

- لماذا؟

- لأنّ الأوروبيين يتعاملون مع العرب على أنهم بداة حفاة، يركبون الجمال ويأكلون عيون الشياه.

- أنت تعلم أنها دعاية مغرضة ليس إلاَّ.

- لكنّ الناس هنا لا يعلمون. فهم يتأثرون بما يسمعون من الإذاعة ويشاهدون في التلفزيون. ولا أخفيك أن صورة العرب في إعلامنا صورة غير جيدة، إن لم تكن بشعة وقاتمة.

- هذا ما لاحظته، لا سيما في برامج الأطفال. ترى هل رأيك يخالف إعلام بلدك، أم يوافقه؟

- لا أخفيك أني لست ميالاً للعرب. لكني أحترم دور سوريا الحضاري القديم. وقد قيل إنّ لكل إنسان وطنين، سوريا وموطنه الأصلي.

- كم يسعدني كلامك.! لكنّ سوريا أرض عربية.

- عدم ميلي للعرب يدفعني لتحييدها عن العروبة. وهذا الموقف، هو نتيجة وجودي في مصر، أيام فترة الاحتلال البريطاني.

- وتتهمني أنا بالعاطفية وأنت من يتعامل بعملتها؟.

- كيف؟

- حين حكمت على أمة بكاملها من خلال تعامل شخصي، فأين هي الموضوعية؟

-قد أكون كذلك. لكن لا فكاك من الذكريات التي حملتها معي من مصر، عندما كنت مسؤول تموين في الجيش البريطاني زمن الاحتلال. حينها كان المصريون يغيرون على معسكراتنا، يسرقون خيراتها ويخلّفون لنا الدمار والخوف والقلق.

- سبحان الله! تعيب على المصريين غاراتهم على معسكراتكم، وأنتم الذين تحتلون أرضهم وتسطون على آثارهم؟

قلت هذا، بعد جهد جهيد وبركاكة لغوية واضحة. في حين كان صفير القطار يملأ الأجواء، إيذاناً بتوقف عجلاته. هممت بالانصراف لاستقبال زوجي، فاستمهلني محدثي قائلاً: لغتك الإنكليزية المزهرة أثّرت بي. وصدقك في التعبير، أضاء المساحات غير المملوءة في نفسي بنظرة سلبية تجاه العرب. أعدك أن أفكر بكلماتك وأن أوازن بينها وبين ما اختزنته في عقلي. إنه أمر غير سهل، لكنه غير مستحيل. وداعاً أيتها السورية العزيزة.

تركته وأنا أتعجب من إصراره على سوريتي، ومن صبره على لغتي. وحثثت الخطا نحو زوجي الذي كاد أن يتهاوى عندما لمحني في المحطة.

■■■

آه يا نيل!

بعد جولة حافلة بالتلاطم مع الأمواج البشرية في أسواق القاهرة، اقترحت صديقتي أن تكون استراحتنا في مطعم الكبابجي بشيراتون الجزيرة، حيث الأزرقان الماء والسماء. الفصل ربيع، والجو مفعم بالدفء والعذوبة. والنيل كعادته يستلقي بمحبة بين الجفون، يجتز من الأرواح التعبة أحزانها، وينبتُ مكانها فرحاً أخضر، يستحم برذاذ النشوة والطيب.

بشهية، أخذنا نتناول طعامنا عند ركن يداعب خد النيل، ونحن نستمع إلى مطرب يغني ويعزف على عوده أشجى الألحان.

استراحة ولا أحلى! همست لصديقتي، التي أبدتني بهزة متحمسة من رأسها. بعد لحظات التفتت إليّ متسائلة: ألا تظنين أنهم مغاربة؟ قلت: من تقصدين؟ قالت: هؤلاء ودلّت على طاولة، يتحلق حولها عشرة من النساء والرجال، يضجون مرحاً ويصفقون للمطرب تشجيعاً واستحساناً.

لم أوافق صديقتي على تخمينها ولم أخالفه، فأنا لم أتبين تماماً، اللهجة التي تطبع كلامهم. وبعد أن التهمت جلستنا ما في حوزتنا من زمن، وما في جسدينا من تعب، سددنا الحساب ونهضنا للانصراف. لكنّ صديقتي أرادت أن تثبت لي حسن فراستها، فتوقفت أمام تلك الطاولة وألقت على جلاسها التحية، وسألتهم لهم بلهجة المتيقن من الجواب: أنتم من المغرب، ها؟!.

- لا. نحن من إسرائيل.

الرعشة الجليدية التي لبست وجهها، لم تمنعها من متابعة تساؤلها:

- فلسطينيون، ألستم كذلك ؟

- لا، بل يهود.

وباستنكار واضح قالت: كيف، وأنتم تتكلمون العربية؟

وبلسان واحد ردّوا، نحن من يهود العراق. في حين علت وجوههم ابتسامة صفراء، وسكنت عيونهم نظرات تنوشنا تحدياً واستصغاراً.

تماسكت صديقتي أمام ورطتها، وهمتْ بمتابعة مسيرها نحو باب الخروج. أما أنا، فدار رأسي وزاغ طرفي. هبوب ذل صفعني، وضعني في مهبٍ لا أستطيع له دفعاً. فجأة، وجدت نفسي في ظروف غريبة لم تعبر خاطري ولم أكن مستعدة لها. أحسست ببعد سحيق عن أرض كانت لي منذ لحظات هي الوطن. شعور قهر يخترقني، يهيب بي أن أمزق وجوههم النتنة وقلوبهم الجاحدة. أيولدون في بلادنا وينشأون على ترابها ثم يتنكرون لها وينتسبون لإسرائيل؟.

ما هو السّر في هذا التصرف، وأين يكمن؟ أيكمن في دين استطاع أن يحوّل عقيدته إلى إنتماء وقومية؟ أم يكمن في خنوع أمة هانت عليها نفسها، فهانت أرضها على الأعداء، وذلّت لأقدامهم النجسة؟!.

في تلك اللحظة، تمنيت أن تتوحش مياه النيل الوادعة لتقتلعهم من هدأتهم، وتجعلهم مضغة لحيتانها الخضراء. تمنيت أن أسمع صراخهم متوسلاً محموماً، ولا من منقذ أو مجير. هل ذهبت في التمني بعيداً؟ أم أن زمن تحقيق الأمنيات لم يحن بعد؟!.

لم تمهلني ذاكرتي لأعيد إلى جسدي توازنه وإلى دواخلي تماسكها. فالمسالك تشتبك وتتشعب، والأحداث تتداخل وتتلون باهتة واضحة قاتمة مشرقة.

تداعياتي تنقلني إلى مدى من صور جارحة، توزعتها مساحات محتلة في الجولان والجليل وغزة والقدس. صور جارحة، لأطفال يسقطون كل يوم برصاص غادر في فلسطين وفي جنوب لبنان. صور جارحة، لأشلاء غضة تناثرت ورداً فوق تراب قانا. ولدماء زكية، تركت وشمها على جدران المسجد الإبراهيمي. صور جارحة، لرجال استشهدوا في الجليل وسيناء والنقب والبطيحة، كي يرفعوا الوطن إلى سمت الشمس، ويجعلوه وردة أفق لا تذوي ولا تغيب. سؤال يفد إلى خاطري، يلوب في فضاء ذاكرتي يجرحني ويحرجني. سؤال يقول: لو أن هؤلاء الشهداء بعثوا أحياء ورأوا ما أرى، ما تراهم يفعلون؟ أيتقبلون ما يجري فوق الأرض العربية. أيوافقون على إذابة دمائهم في مياه السلام الخلبية الآسنة، ويسامحون؟. أم يعيدون أسطورة كفاحهم ويبذلون دماءهم من جديد؟.

أفيق من ارتياداتي الحالمة على يد صديقتي، وهي تسحبني خارج المكان الجحيم. أصوات ضحكات متشفية ترافقنا تجلد مسامعنا، تيّقظ عقلي، وتردني إلى لحظة البدء. ابتلع ريقي، يجرحني طعمه الحنظل. فأدرك أن زمن تحقيق الأمنيات لم يحن بعد!

آه يا عـرب. . . آه يا نـيـل!. . .

نيسان 1994

■■■

أحلام مغتالة

إذا أردت اختبار وفاء رجل، فانظر إلى حنينه لأوطانه وتشوقه لإخوانه.

الأصمعي

سألتْهُ فوزية وقد فوجئت به أمامها:

من أين جئت، وكيف وصلت إليّ؟

- جئت من النبض الذي ما زال يلوب في القلب. من الأيام التي أبت أن تصبح ماضياً.

- ألم تحملك مناخات الغربة ومشاغل السياسة على النسيان؟.

- وجودك في نفسي أقوى من كل المناخات والمشاغل.

- ولماذا ظهرت هكذا بدون مقدمات؟

- لست بحاجة إلى مقدمات. فأنت قلبي حقيقة، لم تتأثر بنفي أو اعتقال.

- وكيف عبرتَ إليّ هذا المدّ من السنين الخصيبة والعجاف؟

- بالبحث عن طريق يوصلني إليك. بالأمل الذي لم يفارقني، أني يوماً سألقاك. انهما الآن وجها لوجه، بعد أكثر من عقدين من الزمن. الأيدي تشابكت. والدموع تحيرت بين أن تنهمر، أو تقف ترنو إلى اللقاء. والتفاصيل مرتبكة، لا تعرف من أين تبدأ.

* * *

تذكرت لقاءهما الأول، الذي بدأ في أحد المراكز الحزبية حين كان ياسر يحاضر عن القومية العربية بين الواقع والطموح. وقتها كانت فوزية طالبة في عامها الجامعي الأول، وكانت أحلامها القومية أكبر من قلبها الصافي، وأعلى من يديها الغضتين.

عندما لمحها ياسر بين الحاضرين، أحسَّ وكأنّ حبلا سريا يمتد بينهما منذ أجيال.

الماضي يصحو، يكسر حاجز الزمن. الذكريات تنفر من مكامنها، مثل غزال مهتاج وترتسم في العيون صوراً لا تنسى. هاهي دمشق تحتضن كنوزها، تحت عباءتها المقصبة، ضنّاً بها عن أعين الغرباء. لكنّ دمشق، ما أن لمست حبهما لها، حتى باحت أمامهما بسرها، وأدخلتهما بين العباءة والجسد. وملأت صدريهما بعطور ياسمينها. وسمحت أن يركضا في طرقاتها وأزقتها، ويعرفا أبوابها وبواباته وساحاتها. ها هي المساءات تقذفهما مرة إلى باب توما، ومرة إلى بوابة الصالحية. والصباحات تضعهما في رحاب الجامعة أو في مقهى آخر خط المهاجرين، المنفرد بصدر جبل قاسيون يحلمان ببناءٍ بيت فوق قمة الجبل كي لا يسمع نجواهما أحد.

يا للحزن! لقد زرع قاسيون من قدمه حتى لمَّته بالبنايات والإسمنت، وبقيت أحلامهما مشرَّدة لا تجد أرضاً تحط عليها.

* * *

بعد صمت صاخب بالصور والذكريات، يحتضن ياسر بعينيه وجهها، ويقول:

- هل كنتُ في ذاكرتك؟

- الإنسان يا ياسر، لا يشفى بسهولة من ذاكرته. كنت أتذكرك دائما وأتساءل، إن كنت تقبع في زنزانة، أو كنت ترمح في قصر. لكنَّ توالي السنين، يصيِّر البعد جفاء. وتصبح الذكرى رصيدا يصعب حمله أو الوفاء به.

- لم تتوقعي إذن أن نلتقي؟

- من كان يتوقع؟

- أنا.

- أعترف أني لست مثلك.

- أما سألت عني أحداً من أصدقاء الأمس؟

- المشهد العربي المضطرب، أبعدني عن كل رفاق الأمس.

- احترم قرارك، ولا أوافق على هذه السلبية؟.

- وأين هي الإيجابية، وأنا أرى مركباً أحببناه يغرق، وأرضاً ترامت أحلامنا على مساحتها تتقلص، ومبادئ نذرنا لأجلها شبابنا تتشوَّه وتتقزّم؟!

قال، والوجوم ينغلق على ملامحه الأليفة:

- انكسار الأحلام وخيبة الآمال لا تستدعي الانكفاء والابتعاد. والمطالب الغالية تتطلب جهدا مضاعفا.

- جائز. إنما أقدامي تعبت من الركض وراء أوهام. وليس بي رغبة لهدر ما تبقى من عمري بانتظار معجزة الوحدة العربية!.

- تحقيق الوحدة يحتاج إلى عمل، لا إلى انتظار يا فوزية. والطحالب التي ترينها على سطح الوطن، لن تعكر أعماق البحيرة. فالماء النقي عندما يجري يطرح معه السموم.

- كم أنت مثالي ومتفائل!.

- لست كما تظنين. إنما أنا خائف من التحولات الخطيرة التي تواجهنا في الداخل والخارج، وتقضي على المثقفين أن لا ينحسروا عن الساحة.

- المثقفون؟! ماذا بيدهم أن يفعلوا وهم في بعض البلاد العربية مواطنون من الدرجة العاشرة؟

- كم أستغرب كلامك!. ترى هل كانت زنزانتي أرحم من بعض حياتك الآمنة؟

- لم أعد قادرة على التقوّت بالأحلام، وأنا أرى الدم يطفو على خارطة الوطن من الماء إلى الماء.

قال، وصوته يأخذ نبرة جديدة فيها كثير من الخيبة والمرارة:

- في السجن، ذقت مراحل الإرهاب الفكري. رأيت كيف تسحق الإنسانية، وتنزع العقول من أماكنها، ولم أصل إلى سوداويتك!.

- لست سوداوية بل مخذولة.

- ما الذي يبدد جحيم الخذلان إن لم نتصدَّ له؟ ما الذي ينقذ الوطن إن لم نسانده ونحميه؟.

سكت ياسر وانحنى في مقعده للحظات، ثم قال وهو يتأهب للنهوض: لا إحساس بالزمن معك، حتى وان اختلفنا في وجهات النظر. صديق لي ينتظرني في الفندق، سأراك مساء على العشاء. وقبل أن تنطق بالموافقة أو الرفض، حرك يده مانعاً أي تعليق.

في ذلك المساء، كانت أعماق فوزية هشة قلقة وهي تجلس قبالة ياسر في الكرسي الذي سحبه لها النادل. مشاعر إثم تلاحقها. تضيق عليها فسحة الفرح. جلوسها مع ياسر في مكان عام، فعل غير مباح لها وغير مبرر من الآخرين. ماذا تفعل، وهي لم تكن تملك الجرأة على رفض دعوته؟ وفي ذات الوقت، لا تملك القدرة على مواجهة المجتمع وتقولاته.

ترحيب ياسر بمجيئها، اعتقل صمتها وبعثر الإثم والقلق من نفسها، فأخفت حوارها الداخلي وراء لسانها. وبدأت تحكي له عن الصعوبة التي لاقتها للوصول إليه في الموعد المحدد. في هذا الصيف الشاميّ المزدحم، يزداد الطلب على سيارات الأجرة، وتزداد معاناة الناس. فالسيارة الواحدة تأخذ عدة ركاب لوجهات مختلفة. غريب، أليس كذلك مع أنّ عدد السيارات المرسيدس السوداء، أكثر من الهم على القلب. حتى ظنّ أحد السائحين الألمان أنه لم يغادر ألمانيا!!.

يضحك ياسر بصخب لتعليقها، وتضحك معه.

تتلفت حولها. تأخذها الفخامة التي تحيط بها، فترحل مباشرة إلى مقهى آخر خط المهاجرين وجلساتهما هناك، حين لم يكن معهما غير ثمن فنجان قهوة أو فنجان شاي. يلتقط ابتسامتها الخفية. يسألها عن السبب، فتقول:

يا للزمن! مبادئ اشتراكية ومصاريف رأسمالية!.

_ أرجوك، لا تفسدي مساءنا بأحاديث السياسة. هذا المساء لنا وحدنا.

توافقه فوزية بهزة من رأسها، ونظراتها تشرب ملامحه.

- خبّرني كيف استطعت أن تهرّب التجاعيد عن وجهك ودواخلك؟

- بالحب والإيمان يا عزيزتي. وأنتِ، كيف خالف شعرك سنَّة المألوف، وصار داكناً؟

تضحك وتقول: بالأصباغ يا عزيزي، بالأصباغ.

-ما أحلاه شلالاً كستنائياً، أعيديه كما كان.

تحرك رأسها بمرح صامت، وهي تطيّر نظراتها من هنا إلى هناك.

- لماذا لم تتزوجي يا فوزية؟

- تساؤله المباغت، أخمد بهجة كانت قد نمت في قلبها. شعرت أنّ في داخلها

- التزامي بتعليم أخوتي أخفى قلبي وراء عقلي، وألبسني ثوب الترهب.
- ألا تفكرين بخلع هذا الثوب؟.
وبسخرية مرّة أجابت: (تأخرتِ كتير تاعطيتِ يا مواسم الزيتون. !)
- ما زلت يافعة نضرة. أفسحي لي صدرك، لنستدرك ما ضاع من عمرنا.
وبكثير من الحزم، قالت:
- الصداقة التي بيننا تكفي. لسنا بحاجة إلى صيغ جديدة.
صدّها الحازم أشاع توترا في الجو، وتغضنا على جبهة ياسر العريضة. لكنّ حضور النادل، أنقذ ياسراً وساعده على فتح قناة أخرى للحوار.
- توقعت أن أرى لك مطبوعة شعرية.
- لم أطبع أشعاري، لأنها أحاسيس خاصة قد لا تعني أحداً.
- الشعر شعور إنساني، يشترك فيه الناس جميعهم. انشري ما لديك، ودعيني أقرأه قبل أن...
- قبل أن ماذا؟.
- قبل أن يغدر بنا الزمن.
- اكثر مما غدر؟!
- ربما، من يعلم؟ قال هذا، ونزع الساعة عن معصمه، ووضعها حول معصم فوزية:
مسح جبينه المندّى، بمنديل مطوّي بعناية، وقال:
- احتفظي بها، وتذكّريني.

* * *

نهضا، عبرا الصالون المترف باتجاه الباب الخارجي. تودّعا، وبداخل كل منهما رغبة تتأجج. تدعو ياسر لوضع يده في يدها، والركض معها في شوارع دمشق وأزقتها. وتدعو فوزية للاختباء بين أضلاعه خوف الضياع والغربة. فلا هي فعلت ولا هو فعل.!

* * *

سنتان مرتا، على ذلك اللقاء - الوداع. لم يصل فيهما إلى فوزية أي خبر من ياسر أو عنه. وفي يوم، اتصل بها أحد الأصدقاء وأخبرها، أنّ ياسراً يغوص في وحل السرطان. لم تصدق ما سمعت، وكيف تصدق؟ وياسر يضجّ بالحلم، ويمنح الأمل والحياة لكل من حوله؟

استعادت وجهه الحزين حينما قال بأنّ مساحة زمنه أضيق من آماله. تذكرتْ، كيف غصّت الكلمات في حلقه وهو يتمنى أن يقرأ أشعارها في ديوان. وكيف أحاط

* * *

مات ياسر. وبمحض صدفة، قرأت فوزية خبر نعيه في إحدى الصحف اليومية. كان منشورا في مربع يحاصره السواد من جميع جوانبه. حجّرتها المفاجأة.! منذ أيام هتفت له. كان حالته مستقرة، أو هكذا أراد أن يوهمها.

كيف استطاع أن يرحل قبل أن يودعها؟ كيف تمكَّن من تركها لغياب لا برء منه، بعد أن أحيا نفسه في حياتها؟.

مات ياسر بعيدا عن أحبته، غريبا عن وطنه. موته في الغربة أكسب جسده ملامح مأساة الوطن، وتضاريس حزنه. من يصدق أنّ الوطن الذي أحبه ياسر، وأفنى حياته من أجله، يغلق الأبواب في وجه نعشه الحزين؟ من يصدق، أن يدفن ياسر في أرض ليست أرضه، وفي تراب ليس ترابه، وتحت سماء لا يظللها نخيل؟.

تتمزق فوزية أسى لموت ياسر بعيداً غريباً. تمزقها صورة الجسد المسجى، مرتدا بين الحدود والحدود. مرتدا بين حدود الحلم والماء والنخيل، وبين حدود الظلم والمظلومين. ترى من يلملم حروف عشق للوطن مكتوبة بالدم، مشغولة بالحب والحنين؟ من يلملم حروف عشق متناثرة فوق أرض لا تتكلم العربية، وتحت سماء لا تتلون بزرقة ٍولا تسطع بشمس، ولا يتسامق في فضائها الضبابي نخيل أخضر حزين؟ ترى من، من يلملم؟.

■■■

عندما تتكلم الأبواب

نحن قوم نحبُّ الهمس. مهنتنا تفرض علينا أن نتعاطى الصمت والتطنيش. لكنَّ، ما العمل ومساماتنا مترعة بالحكايا؟.

الكلام في دواخلنا مرجل يمور، يتحيّن فرصة الخروج والانطلاق. ولا طاقة لنا على ردّه. فاغفروا نزواتنا، لطالما غفرنا نزواتكم.

قد نتجاوز في أحاديثنا عنكم خطوطنا الحمراء. وشفيعنا أنكم في عيوننا، نحميكم ونحرس ممتلكاتكم. نرعى حرماتكم ونأسف لمواجعكم. وقبل هذا وذاك، نحن معابركم إلى الحياة، بكل ما من لهو وعمل واجتهاد.

نرجو أن لا تحملوا في أنفسكم موجدة علينا. وأن تخففوا الوطءْ عن أجسادنا، ولا تطرقوا جباهنا هذا الطرق الموجع. فنحن منكم وإليكم. ألم تعرفوا من نحن؟ نحن الأبواب.!

■■■

باب الدار

رغبة مفاجئة دهمتني، أغرتني بالثرثرة بعد صمت دهري يقارب اكثر من نصف قرن.

ابتدأت رحلتي يا سادتي، بصلبي على مدخل هذه الدار المتواضعة، بعد أن أتوا بي من مكان يصعب تحديده. فأنا لا اعرف أين منبتي، ولا من أين اصلي وفصلي. وطني هو المكان الذي اقف عليه، وأسرتي هي التي تعيش وراء أسواري، وهويتي هي هذا الإطار الذي يحتضن جسدي ويحدد سيمائي.

وجهي الأمامي مسافر أبداً نحو بوابات هذا الحي، نحو أنفاسه ونبضاته، وبكل ما فيه، ومن فيه. تتناوب عليّ ظلمة الليل وضوء النهار، أسهر مع القمر وأناجي المطر، وأتحايل على الشمس كي لا تشقق جلدي. خشبي عتيق، والمسامير الموشومة عليه هي العيون التي أطل بها على حارتي الجميلة، التي حافظت على أشكال بيوتها وأبوابها ومنحنيات أقواسها. وان كان الإنسان الذي يعيش فيها قد تغير، وفقد كثيراً من صفائه.

تحاصرني الذكريات، تعيدني إلى رمضانات بعيدة كنت أعيا فيها من كثرة الدّق والفتح والإغلاق، لاستلام الخيرات المتدفقة علينا من بيوت الجيران. واليوم لا أحد يهادينا أو نهاديه. كم أحب أن أعرف لماذا يتغير الناس، وما الذي يغيرهم؟ أهو الزمن وتعقيداته، أم أنّ هذا التغيير بتأثير الركض وراء لقمة العيش؟

يزعجني صريف الباب الذي يجاورني، يشتت أفكاري ويطرد عن عيني الراحة ومن نفسي الهدوء. مفصّلاته الصدئة، تئن ويئن معها قلبي. جربت مرارا أن أنبهه، قبل أن أكتشف أنه أصم.

موقعي يضعني في مواجهة الغادين والرائحين، ويترك لي فرصة تأملهم، ورؤية الهموم التي يعتلونها على أكتافهم. من بين هذا الفيض الإنساني، كنت أميز الطفل سامر، بقدّه الهزيل ووجهه الأبيض المقدد وعينيه الغائرتين، وكيف كان يبدو في مريلته الخاكية مثل يرقة في شرنقة.

أحلى لحظاتي، تلك التي كانت فيها أصابع سامر الدقيقة تتلمس سطح مساميري وتبدأ بتعدادها: واحد، اثنان، ثلاثة. وقد افتقدت أصابع سامر الدقيقة، عندما هجرت أسرته هذا الحي إلى حي آخر.

وجهي الآخر، ينفتح على دار تتوازع مساحتها الأرضية أربع غرف ودهليز طويل. وتتوسط الدار فسحة سماوية، تنتهي في إحدى زواياها، بدرج حجري متآكل يؤدي إلى غرفتين علويتين مسيجتين بدرابزين خشبي مزخرف. يعيش في الدار الحاج وهبي، وهو رجل ينحدر إلى سفح العمر، له قبيلة من الأبناء والأحفاد. يبدأ يوم

وفي الدار زوجته الحاجة زكية التي تحب الجميع ويحبونها. وهي رقيقة مسالمة، لا يشغلها شيء عن إرضاء الحاج وتلبية رغباته، رغم قسوته وفظاظته معها. الحاجة هي أحب شخص من العائلة إلى قلبي، تعتني بنظافتي وتدافع عن وجودي. في عام مضى قرر الحاج وهبي أن يستبدلني بباب جديد. بكت الحاجة وتوسلت إليه أن لا يفعل، ذكرته بإخلاصي ومحبتي، وكيف دفعت عنهم رصاص الفرنسيين، وحميت الوطنيين المختبئين خلفي من عيون الجواسيس.

آيه كم كانت جميلة تلك الأيام! مع وجود المستعمرين، ومرارة ظلمهم. كان جمالها في محبة الناس وإخلاصهم. في الطابق العلوي تعيش بنت الدار يسرى، ومن يراها يظنها باردة، لا تبالي بما يدور حولها. لكنها غير ذلك تماما، فهي رهيفة حساسة، تضايقها قسوة أبيها وانسحاق أمها، فتنغلق على نفسها وأزهارها وكتبها. في سكون تخرج إلى تعليم التلاميذ في مدرسة بالجوار وفي سكون تعود، دون أن يسمع لها صوت في هذا المنزل الذي يعج بضجة الداخلين إليه والخارجين منه. يسرى في الخامسة والثلاثين وما زالت عازبة، وهذا الوضع يتعس الحاجة ويقلقها. فمن أجل أن تتزوج يسرى تصلي أكثر وصوم اكثر وتزور الأولياء والصالحين، توزع عند أضرحتهم الخبز والدراهم نذوراً وتقرباً.

منذ مدة اقترحت عليها إحدى الجارات أن تستعين بخطوط الشيخة دبية لفك الرصد عن يسرى وإطلاق نصيبها. في البداية استهولت الحاجة هذا الاقتراح ثم ما لبثت أن استجابت. لكن الشهور مرت، والمصاري ضاعت، وبقيت يسرى بلا زواج!

* * *

مساء أمس، قبل أن تخلد يسرى للنوم، سمعت خطوات أمها تصعد إليها. دخلت الغرفة، وقالت لها: هناك تاجر ثري في سوق الهال طلب يدك للزواج، وهو أرمل وله ولدان، ماذا تقولين؟ تصمت يسرى، وتتشاغل عن حديث أمها بتقليب صفحات كتاب كان في يدها. إنها فرصتك يا ابنتي، وقد تكون الأخيرة. تبقى يسرى على صمتها. تلاطف الحاجة بأناملها شعر يسرى الأسود، وتتابع: الزواج سترة من غدر الأيام، ونحن لن ندوم لك. قولي لي ما هو المستقبل الذي ينتظرك، اكثر من غرفة في بيت أحد أخوتك؟.

توغل يسرى في صمتها وتوغل أمها في مواعظها عن غدر الحياة وعن بشاعة العزوبية وعن قحط الوحدة وعن وعن....

كلام في الهواء ليس له صدى في قلب يسرى أو عقلها. تحس بالحنق على أمها، لأنها تعرض عليها الزواج وهي تعرف إنها مضربة عنه، ولن تتراجع. لقد أبغضت الرجال من خلال والدها وخطيبها السابق صفوح. في العشرين من عمرها وافقت على صفوح الأصلع البدين، والذي يكبرها بعشرين عاما، لتتخلص من جحيم والدها.

*   *   *

حديث الحاجة يؤرق يسرى، يحثها أن تواجه أباها وأمها بالحقائق التي كتمتها في نفسها سنوات وسنوات. وأن تقول لهما: أنتما سبب مأساتي. كراهيتي للزواج تأصلت بفعل ذكوريتك المدمرة يا أبي. ومن خنوعك القاتل يا أمي.

تندفع يسرى من غرفتها، قدماها تقفزان درجات السلم دون وعي منها. تقف أمام باب غرفة والديها، تهم بالاستئذان والدخول، تتردد وتجبن، فتعود من حيث أتت. مسكينة يسرى! في تلك الليلة صاحبت الدمع حزناً عليها، لكن ماذا يمكنني أن أصنع؟ وأنا بالمحصلة باب لا أكثر ولا أقل!!.

■■■

باب شقة عصرية

أنا يا سادتي باب آخر. أشعر بالغيرة من أخي الأكبر. وقلت بيني وبين نفسي، لا أحد أحسن من أحد. وقررت أن أخوض غمار هذه التجربة. لكني تحيّرت عن أي شيء أتكلم. هل أسرد ما سمعته عن العلاقة بين المتزوجين، وخلافاتهم؟ أم أحكي عن خصومات الحموات والكنات؟ أم أستعيد مواقف الآباء من الأبناء، والمشادات التي تقوم بينهم؟ أم أفشي أسرار الصفقات التي تتلاعب بأقوات المواطنين، وتبيع خيرات الوطن؟.

فكرت، فوجدت أنّه ليس لي مصلحة في كسب عداوة الناس. فأنا غريب، وعلى الغريب أن يكون أديبا.

لذا، سأكتفي بالحديث عن صديقي فارس، وعن أسرته. عن أحلامه وحبه.

خشبي مستورد من كندا. نجَّروني، لمّعوني وعلّقوا على خاصرتي مقبضاً ذهبياً، ثم أتوا بي إلى هذه الشقة التي تعيش فيها أسرة لا أعرف عنها غير ما التقطته أذناي من أحاديث متفرقة عن ذكرياتهم، يتداولونها بين الفترة والأخرى. انتقلت الأسرة إلى هذه الشقة منذ عامين، بعد أن استملكت أمانة العاصمة بيتهم وبيوت جيرانهم وأدخلتها في منطقة تنظيم المدينة.

وجودي على مدخل غرفة فارس التي تتوسط الشقة، يتيح لي أن أتابع ما يجري حولي وأسمع كل حديث يقال. لكن المدهش والممتع في هذه الشقة قليل. والأيام فيها كئيبة رتيبة، رتابة الدوام في المؤسسات الرسمية لا تجديد فيه ولا تلوين.

في الصباح، يخرج الجميع إلى العمل، وفي المساء يعودون. والد فارس رجل في منتصف العمر. وإذا أردتم أن تعرفوا عنه أكثر، فهو طويل القد، هادئ الطبع، ويرأس الدائرة القانونية في مؤسسة اقتصادية. يحب رياضة المشي وقراءة كتب التاريخ. ووالدة فارس تختلف عن زوجها شكلا ومضمونا. في قدها قصر وبدانة، ولا تهوى غير مشاهدة التلفاز. أمّا زهرة البيت الوحيدة فارس، فقد ورث طول القامة عن والده وجمال الوجه عن أمه. هو في الثالثة والعشرين من عمره، مجاز في علوم الجيولوجيا ويعمل في شركة تصنع المنظفات المنزلية.

غرفة فارس، بسيطة الأثاث مثل بقية غرف الدار. من سقفها تتدلى ثريا صغيرة محلية الصنع، ترش نورها الأصفر على سرير مفرد، ومقعدين من الجلد

أو ل مرة رأى فيها أروى جارتهم في الشقة المجاورة. وجدها أصغر سناً من أن تلفت نظره. لكنه بعد عدة أشهر وجدها قد كبرت فجأة ووجد نفسه قد أحبها.

البارحة كان ينتظر حضورها لتعيد له كتاباً استعارته. كان يبدو عليه التوتر، عيناه مثل آلة تنظر إلى الساعة لحظة وإلى الباب لحظة أخرى.

عندما انفرج الباب الخارجي عن قامة أروى، صار فارس طفلاً لا يعرف كيف يهدأ ولا كيف يجعل أصابعه تستقر في راحة كفه. ناولته الكتاب وقدمت له باقة نحيلة من ورود أرجوانية صغيرة ذات قلب أسود. كاد يصرخ ملء الدار، أحبك، أحبك. خجله أسر الصوت في حنجرته. أجلسها بعد إلحاح في غرفة الزوار، وأجلس جسده على مقعد قريب منها. كانت روحه تحوم حولها، تلتقط ذرات تنفسها. وكانت عيناها تبتلع منظر يديه المضطربتين وتشرب تفاصيل وجهه الوضيء.

لفته هزة من رأسه حتى أخمصه. وضع يديه خلف رأسه، خوفاً من أن تتحركا وتلمساها، حرصا عليها من أن تتجرح، فهي نورانية مثل ملاك، شفافة مثل بلور نقي.

في ذلك المساء امتطى فارس صهوة أحلامه وانطلق بها بعيداً، وكعادتي انطلقت معه. وأنا مفتوح الأجفان، إلى أن ترجل فارس عن صهوته ونام.

* * *

وفد النهار على فارس مبكراً، والشمس ما تزال وراء الأفق. بدا مهموماً. جلس فوق سريره يحملق في الفراغ، ويفكر في أروى، وفي مستقبله معها.

يشعر بالضياع. الأرض رجراجة تحت قدميه. يحدث نفسه: ما جدوى العلم وما نفع الطموح، والمال هو الذي يقرر مصائر الناس؟ رفضني أهل أروى لأني لا أملك مالاً ولا شقة، متناسين كل ميزاتي الأخرى!. لا مناص من السفر إلى دبي للعمل، وجمع مهر أروى. لكن كيف السبيل إلى إقناع والديه؟

* * *

أطفأ فارس ضوء الثريا، واتكأ إلى حافة النافذة الباردة، ساهراً يقاوم بعينيه الظلام. طالت رحلته في صدره، أتعبه الدوران في فلك المستقبل. أتعبه التفكير

مشاعر صعبة تموج في دواخل فارس. إنه يتخبط على مفرق طرق. لا يعرف ماذا يختار ولا أين يتجه؟ أيسافر ويحقق لنفسه كسباً مالياً يمكّنه من الفوز بأروى؟ أم ينساق مع عواطف أبويه ويبقى مراوحاً في مكانه؟

يشعر فارس وهو يزرع خطواته في أرض الغرفة، بالأشياء تنزرع في رأسه، وتدفعه إلى تلمس مستقبل جديد في دبي.

* * *

عقارب ساعة الحائط الكبيرة التي ورثتها أم فارس عن والدها. تدق معلنة انتصاف الليل. نوّاسها النحاسي يدق على باب عقلي، يصفع وجهي كي استيقظ من حزن قلبي. فارس سيغادر بعد ساعات، وأنا سأبقى وحيداً. ابتلع الضجر إلى أن يعود. فبعد اليوم لن يكون هناك موسيقى تؤنسني، ولا همسات عشاق تسعدني، ولا صهوة أحلام أمتطيها. لكني، لن أنسى أن أقول لكم: أنني سأبقى دوماً بانتظار فارس، وفاتحاً ذراعي لاستقباله.

■■■

باب أندلسي

كم مرة صادف، ووقفتم أمام صرح حضاري، وتمنيتم عليه أن ينطق لتعرفوا خباياه وأسراره؟

أنا باب اشبيلي، تفوح من بين درفتيَّ رائحة الأندلس وأمجادها. اليوم، سأتخفى في إهاب إنسان، لأنقلكم إلى أيام المعتضد. سنسير معاً عبر الزمن، نستنهض التاريخ، ونحقق رغبة، ونروي فضولا.

منذ مدة وشهوة الكلام تتملكني. والحنين إلى الماضي يستهويني. إلى زمن كنت فيه، أغمض عينيّ على قصة، وأفتحهما على قصة جديدة. حين زخرفوا جسدي بألوان من النقوش، وملأوا فراغاتها بقطع من العاج وفصوص من الحجارة الكريمة، أدركت أنه سيكون لي شأن ما، وصدق حدسي. فقد جاء بي رجال الخليفة المعتضد إلى أهم قاعة في قصر اشبيليا، وجعلوني شاهدا على عصره وعصر من تلاه من أبناء وأحفاد. في هذا القصر، لم تداخلني مشاعر الغربة. بل عشت فيه بألفة مع الأبواب الأخرى، ومع الناس المترددين على غرفه وقاعاته.

مهمتي في هذا القصر ابتدأت، مع بدء الحياة فيه. حيث كان كل شيء لامعاً ومبهراً. لدرجة تمنيت فيها، لو تنبتُ لي أصابعُ لأتلمّس بها الجدران الرخامية، وأفاريزها المخرمة المزينة بالكتابة العربية والآيات القرآنية. سقف قاعتي مذهب، وأرضها مرصوفة بالفسيفساء الملونة. ونوافذها وسيعة، تربط الداخل بالخارج. تُمتّع الجالس بمنظر الآفاق البعيدة والقريبة، وبرؤية نافورات الماء، المحفوفة بأكاليل من الأشجار والزهور، وكأنها درر بين زبرجد مكنون. لا أظنكم بعد سماعكم هذا الوصف، تستغربون أنسنتي. فالعمارة هنا مجبولة بروح الإنسان وفكره.

في هذا القصر، يعيش (المعتضد) الطاغية الطموح. الذي بسط نفوذه على عدد من الممالك الأندلسية، بعد أن قتل ملوكها وولاتها. حتى تحولت ساحة قصره من حديقة للأشجار، إلى حديقة لأعواد تنتصب فوقها رؤوس الرؤساء وأجسادهم. ويحزّ في نفسي، أني هرمت، ولم يتسنّ لي أن أمارس حريتي في هذا القصر كما أحب وأريد. فالجنود والحرّاس، لا يغفلون لحظة عن مراقبة كل من يمر عبري دخولاً وخروجاً. وبدلاً من أن أكون حامياً صرت محمياً. ومع هذا، لا أنكر أني كنت سعيدا وفخورا، لأنّ وراء أسواري يجلس المعتضد، ملك اشبيليا.!

* * *

كنت أتابع أخبار القصر ومجريات الأحداث فيه، أولاً بأول. إمّا من مصادرها مباشرة، أو من زملائي الموزعين في أنحاء البناء.

وإن أنسى، لا أنسى ذلك اليوم الذي قامت فيه قيامة القصر ولم تقعد. لخروج ولي العهد اسماعيل مع مجموعة من البرابرة والعبيد، على أبيه الخليفة المعتضد. اللعبة كانت مهولة، وأكبر من قدرتي على فهمها واستيعابها. فأمسكت قلبي بيدي ليقيني، أنّ اللعبة ستنتهي ببعضهم إلى السجن أو القبر.

تألم المعتضد وتألمنا معه، لموقف ابنه اسماعيل. فحاول بمحبة الوالد أن يحاوره، علّه يثنيه عن موقفه.

- ما الذي دهاك يا بنيّ لتفعل ما فعلت؟

- لم أعد أطيق جشعك، وتقتيلك للملوك.

- لكنك كنت عوني وعضدي في هذا الأمر!.

- صحيح، وقد مللت سطوتك وبطشك.

- لماذا لم تصارحني برأيك، قبل أن تتمرد وتشق عصا الطاعة.

- لأنك لم تعودني على المصارحة والحوار. ولا تسمع غير صوتك.

- في بعض المواقف، يكون التفرد بالقرار ضروري. فأنا أبني لك ولبني عباد، ملكا يمتد على جميع أرض الأندلس. لتنعموا فيه من بعدي، أنتم وأولادكم.

-أريد العرش الآن. تنحَّ عنه، واتركه لي.

- دورك آت يا بني. أم نسيت أنك وليُّ عهدي؟.

- لم أنسَ، ولا أرغب في الانتظار.

إزاء موقف اسماعيل المتصلب، كان لا بدّ للمعتضد من محاولة ما، للتوصل إلى حلّ معقول بهذا الشأن، قبل أن يقوم بفعل يندم عليه. فأمر بحبس إسماعيل في القصر، علّه يرتدع ويثوب إلى رشده. لكنّ اسماعيل لم يرعو، وبقي على رغبته في عزل أبيه من الحكم.

وجاءت لحظة الحساب التي حاول المعتضد أن يهرب منها، وتمنيت أنا نفسي أن لا أراها. فقتل ابنه بيده، وقضى على الفتنة.

طعم المرار يملأ فمي لهذه التداعيات الأليمة التي أحزنتني حين وقوعها، كما أنها تحزنني الآن. وكم من مرة تساءلت، ترى هل السلطة وشهوة الحكم

* * *

بلغني أنهّ بعد وفاة المعتضد، خاف الناس على العرش من ابنه (المعتمد)، كونه شاعراً محبّاً لمجالس اللهو والغناء، متلافا للمال وصديقا للشاعر الماجن ابن عمّار. لكنّ المعتمد، أثبت أنه لا يقلُّ عن أبيه شجاعة وبسالة، بامتلاكه غرب الأندلس، وإعلاء يده على من كان هنالك من ملوك الطوائف. وفي محاربته الفرنجة، وصدّه (ألفونسو) عن أبواب اشبيلية وقرطبة.

وهذه الأعباء لم تمنع المعتمد، من أن يكون إنسانا، مرهف الحس شغوفا بزوجته (اعتماد الرميكية)، ساعيا لإرضائها. وعلى سبيل الطرافة، سأنقل لكم ما بقي في ذاكرتي عن (يوم الطين)، الذي ابتدعه المعتمد من أجل زوجته اعتماد. التي اشتهت أن تمشي حافية في طريق موحل، مثلما تفعل نساء البادية اللواتي يبعن اللبن في أزقة اشبيلية. فأمر المعتمد باحضار العنبر والكافور وماء الورد لتخلط معا، حتى تصير طينا. ودعا (اعتماد) لتخوض فيه. إنه سحر الحب، ألستم معي في ذلك؟

يحزنني، أنّ الأيام لم تصفو للمعتمد كما كان يأمل. فقد طمع في ملكه (يوسف بن تاشفين)، صديقه وحليفه في حروبه ضد ألفونسو. فقتل ولديه، وأسره مع زوجته اعتماد في مدينة (أغمات). وبهذا، دالت دولة بني عبّاد. فسبحان الحي الباقي.!

بعد الذي رأيته من صنيع اسماعيل، وصنيع ابن تاشفين. صدقوني إذا قلت، إنّ الندم يعتصرني لتقمصي إهاب إنسان ولسانه. لكنّ يعزيني، أنّ قلبي لحسن حظي ما زال قلب باب!.

■■■

باب في مؤسسة

ترى لو أعطي لي حق الكلام، ماذا أقول؟!

كم أنا ساذج! متى كان الحق يعطى؟!... وكيف أُعطى حقاً حرم منه كثيرون من عباد الله؟! ومن الذي سيتجرأ ويمنح هذا الحق لباب؟!...

حق الكلام لباب؟! نعم، لم لا؟!.. أليس الباب ظل الإنسان؟!

لن أتكل على أحد في نيل حق الكلام. سآخذه لنفسي بنفسي، ومهما كلفني هذا من عناء.

***

دائماً كنت صامتاً، أهزُّ رأسي، مستسلماً لسلبيتي وأكتفي بمصافحة الوجوه التي تنعكس على مرآتي. وها أنا أفيق من سباتي الطويل، أندِّي كلماتي التي طال احتراقها على شفتيَّ. وأصوغ منها حكاية. قد لا تروق هذه الحكاية في تفاصيلها لأحد، إنما تبقى لها نكهتها وخصوصيتها، أو لنقل إنني أراها هكذا.

عندما فارقت دكان صانع الأبواب، كنت حزيناً لأني تركت فيه أمي وبعض أخوتي. وكانت أمي من خلال دموعها توصيني أن أكون مهذباً وأتكيف مع المكان الجديد. وكان أخوتي يلوحون لي مودعين، إلى أن غابت الشاحنة التي تقلني مع أبواب آخرين.

شجرة نسبي أوروبية، لكني لا أعرف تماماً في أي بلد ولدت، فأبي كان دائم الترحال. اشتهيت أن أكون باباً مصنوعاً من خشب زان عريق.

يلائم البيئة الشرقية، لا باباً مصنوعاً من معدن مستورد فرضته التقنية الحديثة، على كلٍ، لا حيلة لي فيما أنا عليه، جاءت ولادتي على هذه الصورة ورضيت بها.

***

أنا هنا في مؤسسة عدد الموظفين فيها قليل، يتوزعون على غرف متناثرة على طرفي ممر طويل. أبواب الغرف متشابهة في الشكل. مختلفة في الصوت متباينة في الهدف. بعضها مشرع وبعضها موارب وبعضها مغلق مغلق، فضاء من النور والصفاء أنا. آمنت بالنقاء، فمنحت عمري لمن يقتنيني، أحنّ إلى الصدق والصادقين. حتى الآن لم أجد من يطفئ هذا الحنين!

صفحتي البلورية دفاتر لا تمتلئ من حكايات مشغولة بالهمِّ والحلم والخيبة والوجع. زمني يتكسر على نغم فتح القفل وإغلاقه، وهذه الحركة المستمرة تتعبني، أتمنى أن أتمدد على سرير وأنام.

أنتصب بقامتي الأنيقة أمام غرفة فسيحة، جدرانها ملفوفة بورق ملون، وأرضها

كم من عابر مرَّ بي، وفضول ينتابه ليعرف ماذا خلف عوارضي. ولو أنه سألني، لرجوته أن يتابع سيره ولا يبدد فضوله بخيبة أمل!

لست راغباً في أن أركب موجة النميمة وأسمعكم هذراً لا طائل منه، لكنَّ الذي يجلس وراء أسواري يضطرني لركوبها.

***

بدأ الأمر مع عزيز هكذا، استيقظ ذات يوم فوجد نفسه معاون مدير، ولم يخطر بباله أنَّ الخط سيمنحه منصباً أعلى من كفاءته وأنقى من سريرته، لكنّ الله إذا أعطى أدهش!

حين تسلّم عزيز عمله، جمع الموظفين التابعين له وأسمعهم تراتيل من سفر الضمير المهني؛ عن الالتزام بمواعيد الدوام والتفاني في العمل لرفع سويته وأقوالاً عن العدل والمساواة وبأنّ أقربهم إليه أكثرهم عملاً وإنتاجاً.

تفاءل الموظفون بكلامه واستراحت قلوبهم المتعبة من عنجهية بعض المدراء وتسلط معاونيهم، إنما الأيام تكشفت عن رجل مختلف، وجاءتهم بما لا يحيبون. فقد انساق عزيز وراء ضوء السلطة، وخصّ نفسه بميزات كان قد أنكرها على من سبقه. ووضع المؤسسة في تنور من الحق والكراهية، حين اصطنع لخدمة مآربة بعض المنافقين من الموظفين، وجعلهم عيناً له على زملائهم. بالمختصر شغل الجميع بقراراته الكيدية، وانشغل هو بمشاهدة برامج الفضائيات.

بين قلقي عليه وعجبي منه، كنت أنصحه بالتخلي عن صلفه. فيمسك به كبرياؤه الكاذب، ويقول له: اللطف والتواضع ليس لأصحاب المناصب العالية.

وكنت أرجوه أن يكون عادلاً نبيلاً، فيقول له حقده.: النبل والعدل ليس لأمثالك.

كم أنا حزين! تخلى عزيز عن إنسانيته وتناساها في غمار الترهات وصغائر الأشياء.

سأقول لكم سراً إني مع عدم اقتناعي بوجودي أمام غرفة عزيز، أعترف أني، إلى حد ما، أكثر حظاً من بعض الأبواب في هذه المؤسسة.

فباب غرفة (روز)، مصاب بصداع دائم من جراء مكائدها وافتراءاتها على زميلاتها، وأنا بالسليقة أدرك أنَّ كل ماتلفقه ينتهي بالفشل، لكنها لا تفقد أبداً اهتمامها في هذاالمجال؛ فمثل هذه المكائد تشعرها بوجودها.

وباب غرفة (فتنة) مصاب بصرع من شدة قسوتها عليه، ولحالة العبث والإهمال التي يستبيح فيه أوراقها.

وباب قاعة الاجتماعات، مصاب بداء المفاصل، فقد نشفت غضاريفه من ندرة فتحه وإغلاقه.

ألستم معي بأنَّ الاكتواء بنار عزيز أرحم من الجلوس مع امرأة مفترية مثل روز ومن العمل مع امرأة خرقاء مثل فتنة؟!..

عذراً لهذا التداخل. فأنا في هذه اللحظات أعيش فوضى في حواسي، وتشابكاً في لغتي ومواقفي.

***

البارحة، دخل الموظف رياض على معاون المدير عزيز، استقبله... ببرود وعدم مبالاة، وسأله: خير؟؟!

تردد رياض، قبل أن يضع على المكتب ورقة سجل فيها طلبه، تصفحها عزيز بعينين مزمومتين، ومن غير أن ينظر إليه قال:

اللوائح لا تسمح بمنحك تعويضاً مالياً عن عملك الإضافي.

- كيف، أعني لماذا؟!

- لا كيف، ولا لماذا، هكذا!

- التعويض من حقي، إنه تعبي.

يتجاهل عزيز كلام رياض، ويتلهى عنه بالضغط على أزرار جهاز التحكم لتغيير القناة التلفزيونية التي كان يشاهدها، يمدُّ رياض يده، يسحب الطلب وجلده ينضح عرقاً وحنقاً، أحسست بأنفاسه تحرق صفحة وجهي، وهو يدير مقبضي ليخرج من الغرفة الجحيم.

لا تسألوني عن تفاعلاتي في تلك اللحظة، فأنا لا أحفظ كلمات كثيرة أستطيع بها أن أترجم مايدور في داخلي. للمرة الأولى في حياتي أرى رجلاً بعينين دامعتين!

أكثر من مرة تساءلت، لماذا يعمل عزيز على إتعاس زملائه؟! وماهي الدوافع الكامنة وراء المشاعر السلبية التي يحملها في نفسه تجاههم، لدرجة أنه يتمنى أن لا يحصل أحد منهم على علاوة أو ترفيع. وحاولت أن أتقصى مصدر هذه المشاعر فلم أوفق. اليوم، سمعت حديثاً دار بين اثنين من المترددين على زيارة المؤسسة:

- ياله من معقد! قال ماهر.

- بل قل، ياله من مسكين، أجابه سعيد.

- مسكين؟! لقد شوى اللؤم أعماقه فما عادت تنبت لاحُبَّاً ولا حَبَّاً.

- أجل إنه مسكين! عاش طفولة قاسية وشباباً ملوثاً.

- لا أفهم ماتعني.

- عانى من الفقر في طفولته، و...

- كلنا عانينا مثله. قال ماهر.

- ربَّما! لكن، ماحدث له فيما بعد يختلف، لقد تعرض لامتهان رجولته، مما قلب حياته رأساً على عقب؛ وترك في أعماقه ندبة لا تمحى.

هذا هو عزيز إذن!

يغلفني انقباض من بشاعة ماسمعت، أرسُّ رأسي تحت وسادتي مستجدياً النوم بغتة أشم رائحة عطر أنثوي، أبعد الوسادة وأنزلق من فراشي مسرعاً؛ فأرى

كأني بكم تقولون: باب مصنوع من معادن الألمنيوم، وعنده كل هذه الأحاسيس؟! نعم!؟ إنّ بين جنبيّ قلباً دافئاً محباً، وأنا عندما أرى امرأة، أجزم أنّ شيئاً ما ينقصني. أرشدوني ماذا أفعل؟!

النادل يدنو مني وفي يده صينية، فوقها أكواب من الشاي وصحن من الحلوى فكرت أن اختلس بعضها لأسكت جوعي، تذكرت أنهم قد يشنّعون عليّ قائلين: حاميها حراميها، فتراجعت.

***

أشعر باختناق، ولا أدري هل الاختناق في الجو أم في صدري؟!

الساعة تجاوزت دقاتها الثانية ظهراً. غادر الموظفون المؤسسة، وبقي عزيز في غرفته يرتب بعض أوراقه، ويستعيد ماجرى في يومه من خلافات ومشاحنات. وأنا أحاول أن أنفض عن جسدي غبار الأحداث التي سمعتها وشاهدتها، وأؤنب نفسي على اقتناص حق الكلام، الذي لم أجن منه غير التعب والقلق.

لا الليل ولا الهدوء ولا النسيم المتسلل من الشقوق مداعباً ثوبي، تحررني من الندم. قررت أن أقوم بعمل أعزل بموجبه نفسي من موقعي. نزعت المفصل من طرفي الأيمن، ثم كورت قبضتي،وبكل قوتي سددتها إلى صدري فتناثرت قطع الزجاج، ومعها تناثرت مشاعر اللوم والندم.

■■■

لوحات قصصية

(1)

اجتماع

في الخارج. الليلة عمياء، المطر بحر، والبرد يصهر القلوب المتعبة والجسوم الهزيلة. وفي الداخل. ثريات تضيء كأنها النهار، ورجال مكتنزون دفئاً وترفاً. ها هم يلتئمون حول طاولة مستديرة، يناقشون مصائر أمم وحياة شعوب. ويوقعون بأقلامهم المذهبة، على عقود بيع وتصنيع أسلحة نووية وغير نووية. وحالما انتهوا من مهمتهم، خرجوا، وأعلنوا أمام الصحافة وكاميرات التلفزيون أن اجتماعهم كان بهدف الحفاظ على بيئة نظيفة، صحية يسعد فيها الأطفال، وتزدهر فيها الطبيعة والإنسانية.

* * *

(2)

حلم

كان عازباً. وكان حلم الحب، يمتد رخياً رضياً على مساحة قلبه وعمره. تزوج، فهرم الحب وانكمشت المساحات.

* * *

(3)

خيبة

أية مغامرة حملتها، على أن تمنحه رؤاها وأغانيها؟! أية مغامرة حملتها، على أن تتأبط حبه تميمة وتعويذة؟!

لخيبتها، لم يكن سوى ظل رجل!.

* * *

(4)

حبّ

ولدت عمياء. وعندما أحبّت، شعّ الضياء في قلبها، فزهت في عينيها الألوان.

* * *

(5)

مفاجأة

ملأت كفّها بحفنة من تراب الوطن. حدَّقتْ فيه، وجدتْهُ مملوءا دبابات وأسلاكاً شائكة.

* * *

(6)

تفاصيل لا معنى لها

أحبها حتى الفناء، وتجاهلته حتى العدم.

وبين هذا الحب وهذا التجاهل، حصلت تفاصيل لا معنى لها. انتهت به إلى مشفى الأمراض النفسية. وانتهت بها إلى بيت الزوجية، مع رجل تحبه حتى الفناء ويتجاهلها حتى العدم.

* * *

(7)

اللاعب واللعبة

كانت تلتقيه ثلاث مرات أسبوعياً. وكان في كل مرة، وبعد أن ينهي سهرته معها يعيدها إلى منزلها. تماما كما يعيد الطفل لعبته إلى الخزانة، بعد اللهو بها.

وفي يوم، ضاق اللاعب باللعبة. تركها في الخزانة، ومضى يبحث عن لعبة أكثر شباباً وتجدداً.

(8)

أم الشهيد

لم أعد أذكر، كم مرّ من الوقت وأنا أنظر في الجريدة، إلى صورة تجمع بين أم جنوبية وابنها الشهيد. كانت منحنية عليه، لصيقة به وكأنها تسكب قلبها في

كانت عيناها مفتوحتين مثل عيني صقر، وكانت نظراتها حانية مثل أوراق ورد. بمحبة تأملت الصورة، وبزهو علقتها فوق سريري.

إنْ حدث ومررتم بهذه الأم، أرجوكمْ أن تمرّوا بهدوء. وإذا سلمتم عليها، أرجوكم أن تسلّموا بخشوع. كي لا توقظوا النائمين في قلبها: ابنها والوطن.

(9)

جولة

تمنيتُ لو أنها كانت معه في جولته السياحية العالمية.

فقال لها: كنت معي كما دائماً. قلبي يحملك في نبضاته، في حله وترحاله.

نبتت على شفتيها زهرات لها شكل القبلات.

***

(15)

حوارية

قال: أحبك...

قالت: أنا أكثر..

قال: أخاف من الهجر.

قالت: مستحيل أن يحصل.

قال: المساء جميل.

قالت: وجودك أجمل..

أطرقت قليلاً، وأطبقت جفنيها على فرح يرقص في عينيها. وحين فتحتهما، لم تجد غير مسجلة صغيرة ينطلق منها صوت أم كلثوم بتلك الحوارية الجميلة!!

■■■

نعجة لها وجه بدر

في اليوم الأول من وصوله إلى المدينة التي حلم زمنا بزيارتها، نقلته قدماه من شارع إلى شارع، ومن زقاق إلى زقاق، إلى أن استقرتا به عند سور، يقف شاهدا عتيقا على أحداث عصره.

قرب السور، ترتفع نافذة ضيقة في جدار بيت قديم. أمامها، انتصبت قامةٌ هيفاء،

في اليوم الثاني: قصد إليها الدرب عمدا. كانت بانتظاره أمام النافذة، بقدها الأهيف ووجهها البدري. عاين الطريق، ونوافذ البيوت المجاورة. ببطء تقدم نحوها، وببطء اختفت وراء فيء ستارة النافذة.

في اليوم الثالث: عرّشت الرغبة في دمه. عاود العودة إليها. وجدها تنتظره سافرة مضيئة، لا فيء يحجبها ولا ستارة.

في اليوم الرابع: قابلته بعيدا عن حمى الأهل وعيون الجيران. كانت الأماني تزغرد في قلبها، تعدها بالتخلص، من حكم أبيها وسطوة أخيها. مع رجل سيحرر أنوثتها من قيد أسري يغللها.

في اليوم الخامس: جلس الوجه البدري ورجل الأحلام، في مقهى خافت الأنوار. يشربان الشاي، ويتبادلان أنخاب الحب والوعود.

في اليوم السادس: انجرّ الوجه البدر وراء رجل الأحلام، متعللاً بالحب والانعتاق.

في اليوم السابع: تزيّنت النعجة للقاء بكل ما فيها: قامتها، شعرها، ووجهها البدر. طال انتظارها، ولم يأت رجل الأحلام.

في اليوم الثامن: ذهبت إلى المقهى الخافت الأنوار. جلست في ذات المقعد، وشربت ذات الشراب. استعادت صوته ووعوده، وطوفان حبه، ولم يأت.

في اليوم التاسع: عبثا بحثت عنه في مفارق الطرقات، وحنوات الأزقة. عبثا فتشت عنه في طيات ثوبها، في مسامات جسدها الملوثة بلمساته وأريج أنفاسه.

في اليوم العاشر: وما تلته من أيام، أمضتها النعجة في البحث عنه، وفي مراقبة بطنها كيف تتكور وكيف تنداح.

ثقتها بعودته لم تتوقف، إلاّ عندما رقّش دمها أرض الدار وجدرانها. قُتلتْ النعجة ذات الوجه البدر، وتناثرت أشلاؤها. ذبحها أخوها، ثم سار إلى السجن مزهوا برجولته، فخورا بوسام الثأر من أجل الشرف.

■■■

مشروع لم يكتمل

أمسكت فاتن بيدها الرسالة التي حملت إليها دعوة من مستشارية ثقافية عربية، للمشاركة في مهرجان للقصة القصيرة. أعادت قراءتها ثانية وثالثة، شعرت بالدنيا تتحرك من حولها تساؤلاً واستغراباً. كيف يمكن أن أستجيب لهذه الدعوة، والوصول إلى مكان المهرجان يتطلب زمنا وجهدا، وأكثر من وسيلة سفر؟ لا تصعّبي المسائل، فرصة طرقت بابك فلا تصديها.

استجابت فاتن لصوتها الداخلي، وأخذت تفكر بالقصص التي ستشارك بها. تناولت مجموعة القصص التي انتهت مؤخراً من إعدادها للنشر، وقلبت صفحاتها لتختار منها ما يناسب المهرجان. الفكرة لم ترق لها، فمثل هذا التجمع الأدبي يستحق قصة جديدة. فردت أو راقها البيضاء، وأحضرت أقلامها الملونة والسوداء، وجلست تنتظر فكرة تكتبها. غيرت مكان جلستها، وقفت أمام الشباك تستطلع الأفق فكرة تنسج حولها قصتها، خرجت من الغرفة إلى المطبخ وأعدّت فنجانا من شراب اليانسون الساخن، وانتظرت. رنّ جرس الهاتف، كان المتكلم ابنها. جاءها صوته محبطاً يائساً، وهو يقول: تكسرت أقدامي من الدوران بين شوارع دمشق وضاحية دمر، بحثا عن شقة ولم أجد. الإيجارات خيالية، والشقق التي رأيتها لا تصلح للسكن قبل طلائها، وصيانة تمديداتها الصحية، والمؤجر غير مستعد لدفع قرش واحد في هذا السبيل. حاولت أن تهدئ خاطر ابنها بكلمات دينية، تعودت على ترديدها في لحظات الانهزام. لا فائدة يا أمي، سأؤجل الزواج. قال ذلك بقهر ونزق. بعد أن وضعت سماعة الهاتف لم تستطع فاتن أن تخلص سمعها من كلمات ابنها. إحباطه أعداها، شعرت أنها تواجه أزمة حقيقية، صنعتها ظروفها المادية الصعبة وجشع أصحاب البيوت الخالية. وأدركت أن الحصول على شقة للإيجار ليس بالأمر الهين كما تصورت.

* * *

أسندت ظهرها إلى الكرسي، وأخذت تتملى صورة ابنها الموضوعة على المكتب في إطار فضي مزخرف، وتستعرض على شاشة ذكرياتها بعض المحطات الحزينة في حياتها. ثلاثون عاما عمر ابنها الآن ولا يملك مدماكاً

لا تضيّعي وقتك في هذه التقاطعات السريالية، التي تزيد الكآبة وتثير الاكتئاب. على أنها قصص معروفة مكرورة، ولا طائل من تدوينها. الموضوعات عديدة متعددة، تنتظر من يلتقطها. ازدحمت أمامها الصور والمشاهد، ازدادت حيرتها واشتد ترددها، فكل ما حولها يجذبها ويستقطب اهتمامها. هل تكتب قصصاً عن أطفال العراق وفلسطين، عن الجائعين من المحيط إلى الخليج؟ تتمنى أن تفعل، لكن المحاذير كثيرة، والمحظورات أكثر.

تتناوب عليها لحظات الكآبة، فتقرر أن تهجر الحاضر وترحل إلى التاريخ، مثلما يفعل كتاب المسلسلات، لتختار من أحداثه موضوعاً تجعله محور قصتها، وبذلك تمرر كل ما ترغب في قوله. تختار غزوة تبوك. ولماذا تبوك؟ ألم ينتصر فيها المسلمون على الروم مع أنهم كانوا قلة؟. وماذا في ذلك؟! أنصحك بالابتعاد عن موضوعات تقلّب المواجع، وتجلب الحسرات. مفهوم. مفهوم. إذن سأكتب قصة عبيد البصرة وكيف ثاروا على الدولة العباسية، وانفصلوا عن حكمها. اطردي من قلمك هذه المواضيع المعلوكة. لكنها، قصص تحمل في باطنها استمرار الحدث! كم أنت مشاغبة! اتركي الثورات والعبيد، واكتبي ما هو أخفّ على الذاكرة والنفس.

تحيرت فاتن، إن هي تركت كل هذا فعن ماذا تكتب؟ جاءها الصوت ذاته يقول لها: اكتبي عن الحب. وهل هناك أجمل من الكتابة عن الورد الأحمر، عن القلوب الخافقة والعيون الوامقة، عن الأسماء المحفورة على جذوع شجر الكينا؟. لا تثر أشجاني. الحب ليس فرحا كله ولا سعادة كله، بل هو دمعاً وسقوط قلب. ذكرتني بصديقتي سهى التي أحبت (حازم) وظنت أنّ حلمها بالاستقرار مع شخص تحبه ويحبها، قد تحقق. توقعت أنها ستمضي حياتها معه، وتخيلت نفسها عجوزا إلى جانبه تحنو عليه ويحنو عليها، تموت على يده أو يموت على صدرها. لكن لخيبتها، وجدت حازما شائخ الروح، مجعد القلب. ولا شيء يجمع بينها وبينه، لا أمل ولا هدف، ولا حتى أغنية. كل ما أحبته سهى وحلمت به فر من يدها، وبقيت معها الحسرة والندامة.

لا تكملي، كفاك. قطعّت قلبي. ما أصعب انكسار قلوب المحبين.! لم يترك هذا الزمن المشروخ للحب صفاءه وألقه. تشعر بتثاقل القلم في يدها،

■■■

الحياة تبدأ غداً

إنه البحر. إنها الذكريات. هل سبق لك أن كنت قريبا من البحر، وهاجمتك الذكريات، هجوم الموج للرمل؟ مثلما حصل معي؟.

صباح نديّ ونسيم عليل، بعد أيام قاسية من الرطوبة الساخنة. وأنا أقف في الشرفة المطلة، تكاد تكون رأسا على امتداد بحر رائع. وشراع أبيض يبتعد، وكأنه أدرك أني خفت عليه أو أنه خاف، وهاهو يعود. وثلاثة نوارس بيضاء ترف حتى تضرب الماء بأجنحتها وترتفع. وسابحان وحيدان، وفتيات يسترحن بين الماء والماء، يعرضن أجسادهن للشمس وبعض نظرات تلاحقهن في هدوء، ولكن بإلحاح. وباخرة مرمية في البعيد، وآخران يلعبان الورق، وأنا أحمل طيفا، استرجع نظرة شهلاوية وأدرك كم أنا وحيدة!.

أيام لقائي بحازم، أصبحت ذكرى تعطّر بها الرذاذ المتناثر من مياه المتوسط، وأكسبت سماء هذه المدينة دهشة طفولية. وهاهي الذكرى تعود، لتستلقي على الشاطئ شمسا وموجا رؤوما، وبين أجفاني تفاصيل لم تغب.

كيف تمّ اللقاء، متى وأين، ولماذا هو، ولماذا أنا؟ أسئلة تناورت على ذهني، تنعش ما كبا في الذاكرة تحت وطأة الأيام.

كان حازم يحمل وجهي في ذاكرته دون أن يعرف من أنا. وكنت أنا أعرف من هو دون أن ألتقيه. حين دخلت مكتبه مع صديقة لي، اختلجت أجفانه بعنف وقال بانتشاء: إنها أنت. نعم إنها أنت!. ثم مدّ يده إلى درج مكتبه، وأخرج منه صورتي.

- منذ خمس سنوات كنت أغطي وقائع ندوة ثقافية، رأيتك، ظننت أنّ انتيغونا قد بُعثت من الرماد. أذهلني الحزن في عينيك، فصورّتك من غير أن تدري.

ابتسمتُ بغرور الأنثى، ولم أعلّق.

تسرب حازم إلى أعماقي، بطريقة حديثه ونظراته وحركات يديه، بوجهه المربع وشعره الأشيب. بكل تلك الأشياء، ولم أعد قادرة على تجاهله دون أن أملك جرأة البداية. إلى أن هتف لي، يقول بأنّ عنده مادة تخص بحثي. اجتمعنا، تحدثنا في كل شيء. نبشنا ما في جعبنا من صور وخصوصيات. حكى لي عن حب كبير، وأده في أحد بلدان الشرق الأقصى، وأسمعني شعره وأمنياته. وجعبة العمل بقيت بكرا لم تقربها أيدينا.

في تلك الزيارة، أراد أن يوصلني بسيارته إلى بيتي، لم أقبل. قلت له يكفيني أن تقف في الشارع معي، ريثما أستقل سيارة أجرة. قال لن أدعك تفعلين. سأرافقكِ شئت أم أبيت، بسيارتي أو بسيارتك لا فرق. قلت لا أستطيع، فأنا لم أعوّد نفسي على كرم الآخرين.

في ذلك المساء قال: بيني وبينك يا نوار شبه كبير. فأنت تتكلمين عن الحزن وكأنيّ أنا الذي أتكلم. تتحدثين عن الوطن، فأخال نفسي هي التي تتحدث.

كيف لا أشبهك يا حازم وتشبهني؟ ونحن من نبت هذه الأرض الطيبة. ترابها عالق في ثيابنا وعلى جلودنا، مثلما يعلق الطيب بأزهار الفل والياسمين، مثلما يتشبّث اللون بأزهار الجهنمية، التي تذبل وتتساقط، ولونها مازال حيّا ونضراً.

وجودك يا حازم في حياتي أخرجني من دائرة الاحتراق، إلى دائرة الانتعاش. كنت قادرا على أن تجعل قلبي ينبض ينبض حتى يكادّ يلفظ نبضاته. كنت قادرا على أن تشعل قلبي فرحا وحزنا أيضا. إنما، حزن الأمل المترقّب.

آهِ لغيابك، كم له طعم الدم!. قلتُ لك لا تذهب إلى جنوب لبنان. قلتَ: قوة الصحافة يا نوار، تكمن في صدق كلمتها. أريد أن أعيش مع المقاومة، وأكتب بواقعية عن أيام المقاتلين ودقائقها. لشدّ ما أدهشني وأعجبني موقفك!

وهناك في جنوب لبنان، أُخمدتْ الشعلتان في لحظة التقاطهما الحقيقة.!

كيف تغيب يا حازم هذا الغياب الأبدي؟ وكّنت فيما مضى تعتبر غيابي عن دمشق، نوعا من القمع أمارسه عليك. حتى تطرّفت ذات مرةٍ، وشبّهته بالمقصلة.

كنت تعرف أني أتغيب ِعن دمشق، هروبا من لقائك ومهاتفتك. خوفا من الدخول في دائرة الاعتياد والتعود. وكنت تغضب وتؤكد، أنّ صلتنا لن تدخل في هذه الدائرة، لأنّ تفكيرنا وأسلوب تعاملنا يختلف عن النمط المألوف والمستهلَك.

- ومع ذلك، لا أحب منح الأشياء لبوسا أكبر من حجمها.

- رابطتنا، تنتمي لحب غير متداول، يصعب على الآخرين أن يفهموه. أشعر يا نوار أني مولود قبل مئتي عام من الآن. وبحكم هذا المدّ من العمر، أعرف العديد من النساء، مع اختلاف درجة هذه المعرفة. صدقيني إن قلت إنك تختلفين عنهن. في فكرك موهبة، في عينيك مواكب إبداع، وفي حديثك وحي ينتظم عندي قصائد وأوزان.

- يزعجني، أني أحيانا لا أملك أمام نفسي مبررا لاتصالي بك.

- في امتناعك عني خيانة لأفكارك وقناعاتك.

كم كنت طماعا نبيلا يا حازم! وكم كنت قاسية عليك، وعلى نفسي! ليت عينيك اللتين اختطفتهما رصاصة غدرٍ صهيونية، تريان النباتات المجففة، التي أهديتها لي في زيارتك الأولى والوحيدة لمنزلي. وهي تحتل أجمل زاوية في الصالون، مشرئبة بأعناقها الطويلة، مختالة بوبرها الأشقر الناعم. في بعض الأحيان، يخامرني شعور بأنها عيونك السرّية ترمقني، أو بأنها يداك، تحاولان لمسي، وربما تحاولان ...

أنظر إلى المدى الأزرق، فيردني إلى حازم وقولته، عندما حدثته عن مشهد أذهلني. رأيت فيه البحر يسطع فجأة، ثم يظلم بعتمة حالكة.

- إنها لحظة الخلق يا نوار. في تلك اللحظة، كانت محارة في حالة مخاض. وخوفا على جنينها اللؤلؤة، طلبتْ من البحر أن يطفئ أنواره ليحجب رؤية اللؤلؤة عن الأنظار. لا أبدع من الخلق يا نوار. إنه الغد الذي يحمل لنا حياة جديدة. - أنت أيضا فيلسوف يا حازم، ولكل مسألة عندك وجهان. - هكذا يجب أن نفهم الحياة. وإلاّ

* * *

قبل يوم واحد من استشهاد حازم وصلتني رسالة منه، يقول فيها:

في هذه الليلة الباردة عولّتُ على الاندساس في الفراش مبكرا، هروبا من برودة الجو. النوم هجر عيوني، لسبب لا يعرفه أحد غيرك.

قاسية هي حياة المناضلين يا نوّار، وتحتاج إلى قلوب من صوّان وأعصاب من حديد. إنهم يمضون ساعات أيامهم وراء الأسلاك الشائكة، بين المتاريس وفوق الدبابات وضمن الخنادق. موسيقاهم، طنين الطائرات المغيرة المدمرة. وبخورهم، رائحة الدماء تفوح زكية من الشهداء. فالموت يقترب منهم في كل لحظة، حتى كأنهم يلمسوه بأيديهم أو يتركوه يقاسمهم الفراش. هؤلاء الشباب يا نوار، يمنحون الموت معنى وقيمة بعد أن كان دائما بلا ثمن. يؤثرون الوطن على كل نوازعهم ورغباتهم، لا يشغلهم غير طرد المعتدي من أرض الوطن. ومن يصل إلى قمة العطاء هذه، هو صفوة الإنسان. لأنه يصل إلى تلك القمة، على روحه ورماد جسده.

ذكرياتي عن أيامي هنا حلوة وغنية. انتصارات كثيرة حققها الثوار، أظنك قرأت وسمعت عنها. وحياتي في هذه البقعة من العالم حافلة بالامتلاء الجميل، عملا وإبداعا. تقريري شارف على الانتهاء، ورغم تشوّقي للعودة إليك، أحسّ بغصة.

أفتقدك وأشتاقك. أتخيلك تعلقين على كلماتي ضاحكة، وتقولين: ما أقدرك على التعبير. مسحوب من لسانك يا حازم.!

* * *

حضور البحر في عيوني، وحضور حازم في نفسي، أنهكني شوقا وألما. أغمضت عينيّ وضممت يديّ فوق صدري. فيما كانت الشمس تنحدر إلى المغيب، وكانت الأمواج البيضاء، تصدر نغما رتيبا وهي تأوي إلى الشط، تمشّط جدائل الرمل وتمطِر وجه الصخر القاسي قبلات ندية.

■■■

نجمة صبح

مثل صخر حطّه السيل من علٍ، كانت سيارة (الزيل) تنحدر مقعقعة على الطريق الوعرة، تثير التراب وتنثره في الجو وتدفعه إلى أنف عزمي وأنوف المتطوعين من الشبان المحشورين في صندوقها الخشبي.

وكان عزمي يراقب كيف تلتحم أجساد رفاقه وتتباعد مع كل انعطافة من انعطافات السيارة وارتجاج عجلاتها. ويفكر، بالبيت الذي غادره بعد أن أمضى فيه عشرين عاماً. ويفكر بحب أمه وتضاريس وجهها الحزين، بهدوء أبيه وتفهمه، وبدموع أخوته المنسالة على خدودهم الوردية.

في حياة عزمي، يوم له تاريخ لا ينسى، يوم بوغت فيه سكان بيروت باجتياح إسرائيل لمدينتهم حتى ماعادوا يعرفون ماذا يفعلون، أيهربون من المدينة أم يختبئون؟!

كان عزمي في التاسعة من عمره، ولم يسبق له أن رأى مايراه اليوم من تدفق القوة ومن خوف الناس وحزنهم، وتشردهم على الطرقات وفي الزواريب، ومع أنه بكى كطفل، إلاّ أنه صمم على الانتقام حين يصبح قادراً على ذلك.

وشبَّ عزمي عن الطوق، وشبَّ معه حلمه وتصميمه، رغبته في أن يلتحق بإحدى منظمات المقاومة المسلحة كانت قراراً ناجزاً، فهو لم يسمح لمشاعره، طيلة تلك السنوات، أن تتلاطم بين رحم الوطن ورحم الذات، ولم يستطع أن يعيش حياة طبيعية، وهو يحمل في نفسه عار الاجتياح وذل الاحتلال.

حين أعلم عزمي أهله بقراره، تهاوت أمه على كرسي وهي تنتحب وطلبت منه أن يترك الخبز لخبازه، فهناك من هم أقدر منه على القتال وحمل السلاح.

وغلى الدم في قلب أبيه ووجهه، إلاّ أنه صابر وكابر وقال له: لن أزيد الكلام، فأنت الآن غير مستعد للاستماع. وعندما تصبح مستعداً، يكون كل شيء قد انتهى.

وابتلعت حبيبته رشا، الدهشة التي انتابتها وجميع حواسها تستمع إليه وهو يقول:

قد يكون يسيراً أن نصف الحب بمفهومه الواسع، بالجميل والآسر والشاعري والشفاف. لكن، حين يلتصق الحب بالوطن، تصبح له صفة القدسية والتضحية، ويصير له لون الدم... لا أرى لحياتي جدوى في مكان تنمو فيه الحرية وتتحطم فيه

التداعيات تؤلم عزمي، يصرفها عن ذهنه، ويراقب الطريق التي لم تكن كلها وعرة كما كان يظن. بل مستوية مسفلته حيناً، ومعشبة رطبة في بعض الأحيان.

وفي كل الأحوال بدت الرحلة لعزمي نضرة كأحلامه، مع أنه يعرف يقيناً أن حياة كان تعوّدها قد رحلت إلى غير رجعة.

***

وصل عزمي إلى معسكر باحته مساحة جرداء إلاّ من أسوار الأسلاك الشائكة وأبراج المراقبة، وشباب أشداء يملؤون جنباته بأكتاف تتصدى لثقل البنادق، وبأيدٍ ماهرة تحفر الخنادق، وترصّ المتاريس.

المعسكر مدينة تختلف عن مدينة أخرى، مدينة تعرف العناق ولا تمارسه. تمور بالحنين ولا تعبر عنه، تتلفع بالشوق وتطمره تحت قناع من خشونة الرجولة. والشعور بالصداقة هنا خيط غير مرئي، قوي لا يفصمه غير الموت.

***

لم يقترب عزمي من رفاقه، ولم يتعرف على عوالمهم، ليس لأنها عوالم معقدة؛ بل لأنه لم يحاول، فنهاراته تتلاشى في التدريب، ولياليه تتفتت بين السهر ليقينه أن العدو ساهر لا ينام. وبين حلمه بأن يكلف بعملية فدائية في الأرض المحتلة.

***

ياله من نهار! هذا المطر الذي يلتهم كل شبر من الأرض. وهؤلاء الشباب الذي يحولون الوقت إلى زمن له معنى. ومكبر الصوت الذي ينادي على عزمي، يدعوه إلى غرفة القيادة.

هرع إلى هناك، أدى التحية ووقف واثقاً مطمئناً أشار له قائده بالجلوس، وقال له: اختارتك القيادة لمهمة على غاية من الأهمية والسرية وذلك لثقتها بمهارتك في التسديد.

يرفرف قلب عزمي مسرة، ويهمس له: "لقد أزف وقت القطاف".

وبصوت طافح بالاندفاع، يقول عزمي:

أنا رهن أشارتكم سيدي، ولو أنَّ لي أكثر من حياة لقدمتها فداء للوطن.

- مطلوب منك أن تخلّص القيادة من شخصية تسيء بمواقفها وتصريحاتها إلى المنظمة وسير عملها.

دارت الغرفة بعزمي، واحتاج إلى لحظات ليستعيد توازنه.

- ماذا قلتم، سيدي؟!

وبتأمل، ينظر القائد وهو يخرج سيكارة من بين شفتيه، إلى عزمي الذي تيبست نظراته، وكأنَّ عينيه قدتا من صوان.

- ماسمعته ياعزمي!

مرة أخرى، لم يصدق عزمي سمعه، أو لم يرغب أن يصدقه.

- سيدي. أعرف أنَّ الاعتراض على الأوامر ممنوع، لكني لا أستطيع تنفيذ المهمة. أتوسل إليكم ياسيدي أن تمنحوني فرصة أحقق فيها حلمي، الذي جئت من أجله.

يكفهر وجه القائد غضباً، وتتحرك يداه بعصبية، يطرق قليلاً، ثم يرفع رأسه وبهدوء مصطنع، يقول:

كله نضال من أجل الوطن، ولا فرق بين عدو خارجي وعدو محلي، غداً يتم نقلك إلى قاعدة أخرى لتتدرب على خطة - العمل ومراحل تنفيذها. تكثفت صدمة عزمي، بدرجة طغت على كل حواسه، وجعلته لائقاً، لا يدري ماذا يفعل ولا كيف يفكر.

***

لافائدة! هذه الليلة أقصر من أن يستعرض فيها كلَّ مامرَّ به ومافات عليه. يعاوده وجه أمه الباكي، يتمنى أن يضمه ويقبل العينين الذابلتين. يعاوده وجه أبيه الصابر المكابر، وبمرارة يردد ماسمعه منه قبل أن يغادر البيت: "عندما تكون مستعداً للاستماع، يكون كل شيء قد انتهى.).

يعاوده وجه رشا الذي لم يفارقه، ولون الدموع في عينيها، يتذكر أيامهما في الجامعة، وجلساتهما تحت شجرة السرو الكبيرة. يشعر بالخجل من خذلانه لها!

لو أنَّ الزمن يعود إلى الوراء، لكان الآن بين أهله وأحبابه، محامياً ناجحاً وزوجاً محباً وأباً شفوق.

يستنكر عزمي ضعفه، ويزجر وسواس تمنياته.

***

الليل ينزاح تدريجياً على صدر الكون، وعينا عزمي تتابعان بلا يأس. فلول النجوم المقاومة، قلقه يزداد مع تلاشي الثواني التي تفصله عن الموعد، الذي أوشك أن يصبح صفراً.

لا أمل بالانتظار. هاقد حانت لحظة امتحانه لمبادئه وإنسانيته. يجب أن يحزم أمره ويحسم موقفه.

يأخذ عزمي ورقة، يكتب فيها: (آه ياوطني! يانجمة صبح شددت إلى نورها عمري وحلمي. اغفر لي جبني -لقد تساوت عندي المسافة بين الموت والحياة،

يطوي عزمي الورقة ويضعها فوق الطاولة. في الصباح، أفاق الرفاق وجدوا جثة عزمي هامدة، وبقربها حلم لائب يبحث عن نجمة صبح!

■■■

صدر للمؤلف

- الجمان في الأمثال/ دراسة تاريخية مقارنة.
- سندباد في رحلة مؤجلة / مجموعة قصصية.

رقم الايداع في مكتبة الأسد - الوطنية

دما تتكلم الأبواب: قصص قصيرة /جمانة أمين طه - دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 1998-106ص؛ 24سم .

1-813.01 ط هـ ع   2- 813.009561 ط هـ ع

3- العنوان   4 - طه

ع -98/9/1358   مكتبة الأسد